خطوط مائلة

حسني الناشي

الكتاب : خطوط مائلة (رواية)

المؤلف : حسني الناشي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع : ٩١٨٦ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : 0 - 254 - 493 - 977 - 978 : I.S.B.N

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور. الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس : ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



خطوط مائلة

رواية

حسني الناشي

تـقـديـم

هيثم نافل والي
قاص وروائي مغترب
ميونيخ / ألمانيا

تعرفنا على كتابات القاص المرحوم خالد الذكر "حسني الناشي" عن قُرب من خلال اهتمامنا الأدبي بشكل عام، وترشيف وحفظ وإعادة مخطوطاته من جديد، تلك التي خطّها بيده، وكتابة مقدمة تليق به بعد رحيله عنا جسدياً فقط كقاص عراقي عربي كبير في كتابة الأخير " كلمات في دائرة مغلقة " بشكل خاص. هذا أتاح لنا معرفة طبيعة أسلوبه الكتابي، طريقة تفكيره، الكيفية التي يرسم بها لوحات قصصه، وما كان ينازعه قبل وأثناء شروعه بالعمل من خلال الخطوط العريضة التي كان يهتم بها لينفذها فيما بعد أعمالاً أدبية قصصية استهوت الكثير من القُرّاء العراقيين خاصة والعرب عامة، لجمالية نصوصها وتفرده الواضح في رسم شخصيات أبطاله وكأنهم أحياء يشاطرونه حياة الواقع خطوة بخطوة، مما أدّى به إلى شيء

يكاد يكون أقرب إلى النبوغ في تحليل وتفسير الشخصية الإنسانية ومعاناتها من خلال أفعال وردود أفعال شخوص أعماله الأدبية القصصية...

لكن للمسألة جانبٌ آخر، ومعادلة لم نتطرق إليها بعد لابد من الوقوف عندها، وبحثها بدقة، والتنويه عنها، ألا وهي الرواية وما تعني من عالم للكاتب "حسني الناشي"... هذا ما سنتطرق له ومن أجله أملينا المقدمة.

الرواية كما معروف عنها نسيج خيالي يُكتب بقلمٍ واقعي، يتحدث عن الواقع بكل ملابساته النفسية، الجسدية، المادية والروحية وفي ذات الوقت لا يتحدد به، فلو تحدد بالواقع لتقيد الإبداع. والضغط كما قلنا في إحدى مداخل رواياتنا "لا يولِّد في رحم الإبداع إلا أجنَّة ميتة"، خاصة وأن كل إنسان فينا يملك موهبة ما، لكن الناجح هو من يجدها ويعمل عليها ومن ثم ينميها ويطورها من خلال منظاره الشخصي وما وهبه الله سبحانه من ملكة زرعها فيه دون غيره. هنا يمكننا القول: كل شخص يستطيع أن يسرد حالة معينة عاشها هو أو غيره لكن الموهبة هي التي تميز صاحبها في كيفية سردها وكتابتها وبأي أسلوب على الورق يرصها ويدقها، لذلك قلنا لتونا بأن الرواية خيال يكتب بقلم واقعي لا يتحدد بالأخير وإلا أصبح كل سارد

حدث روائيًا وهذا يتنافى مع طبيعة الأشياء التي جبلها الله فينا. لنرجع إلى هدفنا الأساسي وهي موهبة القاص "الناشي" الروائية لم تكن وليدة ساعة معينة ، بل شعرنا بأنها كانت انفجار لتراكمات عاشها المرحوم وتشبع بجزئياتها المُرّة والطيبة فتولدت في خلده آهات ومسرات حوّلها قلمه الفذ العاشق المحب للإنسان المدافع عن إنسانيته إلى عمل أدبي رصين متمثل في روايته التي نتحدث عنها والتي تحمل همّاً شخصيًا كبيرًا انعكس على مزاجه النفسي وأثّر به كثيرًا لعدم رؤيته للأشياء بشكلها الطبيعي لضعف بصره في سنوات حياته الأخيرة، مما جعله يرى الخطوط التي يرسمها ويدونها مائلة ، ومن هنا جاءت معاناته عنوانًا لروايته التي أظن ولا أجدني مخطأ بأنها ستكون خالدة كاسمه في عالم الأدب العربي "خطوط مائلة".



(١)

تملكته رغبة كالحلم الرقيق، أن يقف وسط الجسر حاملاً فيض مشاعره المتدفقة، مع وقع الخطوات المتسارعة نحو هدفها، انهمرت في دواخله أسئلة شتى: ما الذي تحمله إليَّ أيها الموعد الجديد، أخبارًا أم وصايا، أم مهمات أُخر تُضاف إلى سابقاتها؟ ها هو جسدي يلمُّ بعضه على بعض، وقدمايَّ تسرعان الخُطى نحو الهدف، والموعد السابعة من هذا الوقت المبكر... ثمة دقائق تفصله عن الوصول، ما زالت أصوات السيارات ومنبهاتها تعكِّر عليه صفو اللحظات التي اقتطعها من زمنٍ ليس له، والجسر الحديدي يمتدُّ تحت قدميه المتسارعتين كيما يصل في الوقت المحدد.

عند منتصف الجسر... توقف، في أعلى نقطة منه، سرَّح بصره فيما حوله، ها هو دجلة يجري من تحته بهدوئه الأسطوري مستسلمًا لقدره، تلمع مياهه تحت خيوط أشعة الشمس المنسابة في كل اتجاه، أغمض عينيه، واستنشق بعمقٍ هواءً أنعش روحه المتعبة، وأيقظ في أعماقه دفقًا من المشاعر أراق مزاجه، والذي تمنى أن يكون رائقًا لبعض الوقت... أراح يديه على سياج الجسر بعد أن جفَّف بمنديله حبات عرق علقت بجبينه. كانت نسيمات الصباح مترعة برطوبة ماء النهر، خُيل إليه أنه

يستحم في مياه النهر ، الذي انساب برزانته المعهودة لا يلوي على شيء ، يضم بين شاطئيه أسرار تاريخ موغل في عمق الزمن ، وأحداثًا جِسامًا ضمها صدره الواسع النبيل بكرم باذخ ، وأمانة أسطورية. إنه فارس الحياة المجلَّى في هذه البقعة من الأرض ، كأن عصا سحرية أزاحت من أمامه كل المناظر ، لترتسم صورتها على صفحة الفراغ الماثل أمام عينيه ، ها هو الوجه الحبيب بابتسامته الودودة الرائقة ، يحتضن وجوده ، ويمسح أتعابه ، تأوه كأنه يعاني ألمًا قديمًا ، همس يخاطب الخيال: "سأكون دائمًا في الطريق إليك مهما طال بي المقام في هذا المكان أو ذاك".

قطع النصف الآخر من الجسر ، انحرف إلى يمين الشارع متجاوزًا البيوت التي امتدت بمحاذاته ، ثم انعطف إلى الشارع الرئيسي ، سار على مهل حيث المشاعر تضطرم في داخله ، أسرع الخطى ثانية ، ساعته تُشير إلى السابعة تمامًا ، وها هو الزقاق العريض المترب يطالعه بوجوم ، توقف للحظات ، ثم جد السير ثانية ، تذكر أنه البيت العاشر على الجهة اليمنى ، مضى متمهلاً وهو يعد البيوت ذات البناء الحديث ، كان الزقاق هادئًا ، ثمة من يرش الماء أمام بيته أو على أشجار الحدائق ، هذا البيت السابع والمجاور هو الثامن ، ثم توقف أمام باب البيت المقصود ، شمل المكان بنظرة سريعة ، كان بيتًا أنيق المظهر ،

وأشجار حديقته تبدو خلال السياج كما لو أنها لوحة مرسومة بعناية، تريث هنيهة قبل أن يمد يده ليضغط على زر الجرس، تسارعت أنفاسه، تصاعد هم من أعماق صدره، حيث الروح أخذتها موجة حزن شفيقة، سمع صوت باب البيت الداخلي يفتح ثم وقع خطوات في الممر، ويفتح الباب الخارجي، يبرز منه وجه رجل في الخامسة والثلاثين من العمر، عيناه تلمعان خلف زجاج نظارته الطبية، كان يرتدي بنطالاً كاكيًا وقميصًا أبيض بكُمين قصيرين.

سلم وائل بصوت واضح النبرات:

- صباح الخير، هل وصلت اللوحة؟

ردَّ الرجل مبتسمًا:

- صباح النور، إنها في الداخل.

ارتاحت نفسه وهدأت مشاعره، كانت هاتان العبارتان هما الشفرة التي اتفق عليهما للتعارف، قاده إلى صالة واسعة أنيقة، تبدو وكأنها قاعة لعرض اللوحات لكثرة ما علق على جدرانها من تلك الصور، وبذوق يدل على أن ساكنة البيت فنانة، خاطبه الرجل وهو يثبت نظارته على أنفه:

- تفضل بالجلوس، أهلاً بك أيها الرفيق وائل عبد اللطيف.

رد عليه وسمات وجهه لا تدل على شيء محدد:

- أهلاً بكم، وشكرًا لاستقبالكم.

فتح الرجل النافذة العريضة التي تطل على حديقة البيت بعد أن أزاح الستارة عنها ، ثم حرك منظم المروحة السقفية ، انتشر هواء لطيف في جو الغرفة، أسند ظهره إلى الكرسي الوثير ومد قدميه تاركًا يديه تنبسطان على المسندين ، كان بحاجة لهذه الفرصة من الراحة رغم شعوره بالظمأ، بدأ خدر لذيذ يسري في كيانه المتعب، وظن أن إغفاءة مفاجئة ستأخذه، لكنه اعتدل في جلسته، أخرج منديله ومسح وجهه، ثم مرّ بأصابعه على شعره الكث في الوقت الذي سمع فيه الرجل يخاطبه:

- سنفطر معًا ، سيكون إفطار عمل وتعارف ، أرجو أن تأخذ راحتك كأنك في بيتك.

همس وأنّ بعد أن فرغ المكان:

- أشعر بحاجتي لهذا الوقت القصير كي أستعيد هدوئي وأرتب أفكاري.

كان الصمت شاملاً في أرجاء البيت ، إلا أن صوت وقع أقدام وبضع كلمات مهموسة قطع عليه لحظات الهدوء التي أحاطته ، لم تمضِ لحظات حتى عاد الرجل يدفع أمامه عربة أنيقة ، وضعها في المسافة بين الكرسيين ، وقد صف عليها أدوات الشاي والخبز المحمص ، وصمون تحتوي على الزبد والمربى والجبن المقطع.

جلس الرجل بعد أن قرب الكرسي نحو العربة، وكان يردد وهو يصب الشاي في الكوبين بعد أن وضع فيهما كمية من السكر:

- أهلاً وسهلاً، تفضل.

احتسيا شايهما على مهل ، كانا يتبادلان النظرات بين الحين والحين ، في هذه اللحظات ساورت وائل عبد اللطيف أفكار وظنون شتى ، ثمة عتمة تتصاعد من أعماقه ، ممتزجة بقلق واضطراب ، هذا الرجل الذي يجلس أمامه ، يثير فيه شيئًا من الخوف ، في سره تساءل لماذا تغزوني مثل هذه الموجات الغامضة من الخوف والترقب والقلق ، لتملأ عقلي بعذابات لا حصر لها ، متى ستبدأ حديثك يا هذا لننتهي من الموضوع بأكمله؟.

قطع عليه تداعياته صوت أرجل، بعد أن ثبّت النظارة على أنفه:

- رفيق وائل ، القضية التي نحن بصددها (هكذا تناهى إليه الصوت الهادئ الرصين) قضية في غاية الأهمية ، وهدف كبير نسعى إليه ، أنت تعلم أن إجازة حزبنا حق مشروع له ولجماهيره قد سرقت ، وأعطيت إلى مجموعة أفاقين يقودهم شخص عرف بانتهازيته ومواقفه التخريبية منذ تأسيس الحزب وحتى يومنا هذا ، لقد وجدت السلطة بغيتها في الخائن فمنحته الإجازة كي تسحب من تحت أقدام الحزب مشروعيته وتاريخه الحافل بالتضحيات على مدى عقود

طويلة، إن الجماهير تعلم جيدًا أن الإجازة شرعًا وقانونًا هي من نصيب حزبنا، لذا فقد ارتأت قيادة الحزب أن تعيد الحق لأهله، عن طريق عمل منظم ودقيق وصعب.

توقف الرجل عن الحديث ليشعل سيجارة أخرى:

- ولهذا اختيرت مجموعة من مناضلي الحزب المعروفة بصلابتها وثباتها، وكنت أنت واحدًا منهم، هذه المجموعة هي التي ستتحمل تبعات العمل في هذا المقر السلطوي الذي يحمل اسم حزبنا ظلمًا وتجاوزًا على كل الحقائق التاريخية.

تساءل وائل وقد أخذته المفاجأة بعيدًا:

- أنا؟!

بحسم واضح رد عليه:

- نعم أنت أيها الرفيق وائل، لما نعرفه عنك من رجاحة عقل وشجاعة وتقدير جيد للظروف، وما تتمتع به من دراية في مجالات عمل خاصة، كنت فيها مثال المناضل الجيد، ستكون خطًا مائلاً ومعك الرفاق الآخرون، بين أفراد هذه التشكيلة الانتهازية.

توقف عن الكلام فساد صمتٌ عميقٌ بينهما، رآه وائل يمسك بطرف شاربه الكث يداعبه على مهل، كان صوت مكيف الهواء يملأ جو الغرفة ببرودة منعشة، سرت في كيانه راحة عجيبة

فأسلم نفسه لتلك اللحظات اللينة ، خارجًا من الموقف الذي أحاطه.

استمر الصمت ثقيلاً ، إلا أن صوت الرجل بادره بالسؤال وهو يتفرس في وجهه:

- لم أسمع ردًا على ما قلته!

شبك وائل يديه على صدره بعد أن اعتدل في جلسته كعادته في المواقف التي تتطلب منه حسمًا لأمر ما، قال بهدوءه المعهود:

- أيها الرفيق...

قاطعه الرجل مبتسمًا:

- عاصم مراد الجبلي.

أكمل وائل:

- أيها الرفيق العزيز عاصم الجبلي، أنا أدرك كما تدرك أنت أن هذه العملية جزء من الجو الملبد بغيوم العداء نحونا ، إن العملية في تقديري المتواضع ليست سرقة إجازة، إنها أخطر بكثير من ذلك ، إنها عملية تهميش لدور حزبنا كي يتم بعد ذلك تصفيته بشتى الطرق ، ومنها الطريقة التي قامت بها السلطة لإبعاد الحزب عن ناسه وجماهيره، كي يسهل ضربه وتصفيته بسهولة والأمر كما هو معلوم وليس كما يتوهمون.

ابتسم عاصم بحيوية وضحت على سمات وجهه قائلاً:

- علينا الآن أن نعمل ليس وراء خطوط العدو؛ بل في عقر داره، ولهذه المهمة انتدبت وأنا على ثقة أنك ستبرر هذه الثقة.

نفث دخان سيجارته وهو يتفرس في سمات وجه وائل وأكمل:

- لا أكتمك أننا أرسلنا قبلك بفترة ليست طويلة وفي بداية التشكيل؛ بعضًا من رفاقنا، وللأسف فإنهم لم يحققوا شيئًا يذكر، والآن فنحن بحاجة إلى عملك الذي نريده أن يتجاوز المألوف، وأن تقوم بعملية اختراق كبيرة في صفوفهم، لكي نستطيع أن نقوم بعملنا كل في مجاله على أفضل وجه.

في هذه الآونة فتح الباب الجانبي لتدخل زوجته وهي تحمل صينية عليها كوبي شاي، وضعتها على الطاولة بينهما بعد أن سلمت وانسحبت بسرعة.

همس عاصم وهو يمسد شاربه الكث:

- نجوى زوجتي، إنها فنانة تشكيلية.

- يسعدني التعرف بها، لقد قرأت شيئًا عن بعض المعارض التي ساهمت فيها.

بدا كل منهما في ظل السكون الرائع والصمت الشفيف اللذين خيمًا على المكان؛ كما لو أنهما راحا في إغفاءة قصيرة، شعر وائل براحة تسري في كيانه المتعب، تاقت نفسه إلى إغفاءة

قصيرة ، إلا أن صوت عاصم ذي النبرات العميقة مزق تلك الغلالة الناعمة:

- هناك جبهة واسعة تضم كل الأعداء القدامى والجدد ، وكل جبهة تعمل ضد حزبنا بالطريقة التي تراها مناسبة، مستفيدة من سلبيات السلطة وأخطائها العديدة ، في مثل هذا الجو الملبد بغيوم العداء ضدنا ، انتهزت السلطة الفرصة كتعبير عن منهجها المعادي ضد الحزب، بمنح الإجازة – والتي هي شرعًا وقانونًا من حقنا – إلى تنظيم هزيل سرق اسم حزبنا ، ويحاول مسح وتغيير تاريخه بأكمله، وفي مثل هذه الظروف فإننا بحاجة إلى أساليب جديدة في العمل ، غير مسبوقة يرافقها شيء من الخيال الثوري ، وإذا ما استطعنا أن نستحوذ على مجريات الأمور في هذا التشكيل الهزيل، فإننا سنستفيد من ظروف وجوده ، وعندما تمضي موغلاً في تضاعيف عملك هذا ، عليك أن تتذكر جملة من الصعوبات والمعوقات ستقف في طريقك ، سيتخلى عنك أصدقائك ، ستتعرض لحملة تشهير قاسية ، سيقال عنك إنك خائن انتهازي وصولي إلى أخر القائمة المعروفة الأوصاف ، كل هذا وغيره ستتجاوزه من أجل الهدف النبيل، تذكر أن أهداف الحزب تسمو فوق مشاعرنا ، وهي أثمن دائمًا من حيواتنا ، ستذهب هذا المساء إلى هناك.

ثم وبضحكة مكتومة تابع:

- إلى مقر حزبك الجديد ، ستختار خططك بنفسك ، ستكون مبدعًا فيما تختار من خطوات لتنفيذها ، كن حذرًا ودقيقًا ، فالمهمة لا تتحمل أية خسارة، أرجو أن نسمع أخبارًا مفرحة في لقائنا القادم ، وفي مثل هذا اليوم والوقت من الأسبوع القادم ، والذي أرجو أن يكون مليئًا بالمفاجآت ، حظًا سعيدًا وإلى لقاء.

صافحه بحرارة وودعه حتى الباب الخارجي ، وجد الجو لافحًا في الخارج لا يطاق ، استأجر سيارة تاكسي نقلته إلى شارع الكفاح ، إلى المقهى الصغير مقهى ناصر ، حيث يجتمع فيه الأصدقاء والأحبة ، سيمضي بعض الوقت بصحبتهم ثم يعود إلى البيت ، وهناك سيرى ماذا يفعل أو يخطط للقادم في الساعات القليلة القادمة.

(٢)

وجدها بانتظاره، ابتسم ثم انحنى عليها قبلها في رأسها، قال:

- السلام على أعز الناس وأحبهم وأعظمهم على قلبي.

ردت متأففة برقة:

- متى سترحم نفسك ، حتى يوم الجمعة الذي هو راحة لكل الناس لا أراك في البيت ساعة ، لقد تحولت بفضل أعمالك وتصرفاتك إلى حارسة أتجول في غرف البيت وأعد الطعام، بل أنا حارسة وخادمة ، ليلة أمس رجعت كالعادة متأخرًا واليوم نهضت مبكرًا، وبعد قليل لا أدري أين ستذهب أو من سيأتي من أصدقائك لترافقه كما هو المعروف، بالمناسبة ؛ مرَّ عليك زوج أختك يدعوك إلى حفل عيد ميلاد ولده كرم، وأخبرته أني قد لا أستطيع أن أخبرك بالأمر لأني لا أراك، والغريب أن ماجد ضحك وقال بلغيه تحياتي.

قال والوجه ينضح فرحًا:

- اسبقيني إلى هناك، سأحاول أن ألحق بك، لدي عمل بسيط أو موعد مع صديق سألتقيه ثم أعود لكم ثانية، رحم الله والديك أتيني بالغذاء فأنا جائع ومتعب.

قاطعته:

- تقول إن لديك موعدًا مع صديق! ، الآن بدأت أثق أنك لن تأتي، وأن أختك آمال ستعتب عليك، بل وستغضب أيضًا.

- سأكون بينكم، بلغي تحياتي للجميع، وقبِّلي كرم نيابة عني.

دخل غرفته، طالعه الجدار خاليًا من الصورة الأثيرة على نفسه، صورة أهداها له أحد الفنانين الشباب من اصدقائه بعد أن وصف له سمات الوجه الحبيب، خرج مسرعًا ثم خاطب والدته:

- هل دخل غرفتي أحدٌ في غيابي؟

- نسيت أن أقول لك إن حمدي جاء ليأخذ كتابًا، وقال إنه سيعود ليراك.

شتم وائل في سره.

في هذه الآونة سمع جرس الباب ، خرج ليفتحه ، فإذا بحمدي مصطفى يقف مبتسمًا وهو يقول:

- وائل ، ألم أقل إنني سآخذها منك ، وها أنا أحصل عليها بالطريقة التي أراها مناسبة!

تقدمه إلى غرفته وهو يقول بشيء من الغضب:

- يا مجنون ، قلت لك أكثر من مرة إنها هدية أعتز بها من الصديق الفنان "حسام عطا".

قال حمدي:

- وأنت بدورك ستهديها لي.

- ألا ترى الجدار، إنه يشكو من هذا التشويه الذي تسببتَ فيه، عليك أن ترجع اللوحة وتضعها في مكانها، بيدك هذه غير الكريمة... والآن تعال لتشاركني طعام الغذاء.

شربا الشاي ثم ناوله سيجارة، إلا أن حمدي فاجأه قائلاً:

- وائل ما الأمر؟ أراك متوترًا، هل هناك ما يستدعي الحذر؟

- أولاً عدني أنك سترجع الصورة لأنها يا عزيزي صورة راجحة.

ضرب حمدي على رأسه صارخًا:

- أحقًا ما تقول؟!

- طبعًا، لقد أخبرت حسام بأوصافها فرسمها وكأنه يراها.

- يا للأسف يا وائل.

ردَّ وائل متسائلاً:

- لماذا الأسف يا حمدي؟

- كنت أظن أنها مجرد لوحة تستهويك وأحسست أنها تشبه أميرة، وهذا الذي حدا بي إلى أخذها، ستعود الصورة إلى نفس المكان وبكل الأمان والحب.

- شكرًا، أما عن الحذر فلا جديد في الأمر باستثناء أن أعمالاً أخذت إلى أعمالنا السابقة، حتى النوم يا حمدي صار أمنية، سيكون تعبي مضاعفًا في الأيام القادمة.

- أهناك جديد لا علم لي به؟

- نعم، هناك الكثير، وسوف تعرفه من مصادرك. والآن اسمح لي أن أودعك كي أخلد قليلاً إلى نوم أنا بحاجة له.
- هل نلتقي هذه الليلة؟
- لا أستطيع أن أعدك بشيء!

ودَّعه حتى الباب ثم رجع إلى غرفته وراح في سبات عميق.

••••

قالت والدته وهي تطالع مظهره الأنيق:

- الله يا ولدي، أحب دائمًا أن أراك على هذه الصورة، قل لي أية فتاة لا تعجب بك؟

ردَّ مازحًا:

- لا أريد سوى إعجابك ورضاك.
- هذا أنت دائمًا، بالمناسبة، أعلم أنك ستعود متأخرًا.
- لا داعي للقلق. المفتاح في جيبي، وداعًا.

في الطريق إلى الباب الشرقي، ها هو المشوار يبدأ يا بطل، لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أنني سأكلف بمهمة كهذه، مهمة غامضة، ليس لدي أية أوليات عنها، كمن يُدعى للسباحة في بحرٍ هائج، إلى متى يا وائل ستبقى تعطي من نفسك ووقتك

والآخرون يسافرون ويتمتعون ويكملون دراساتهم، وأنت أحق الناس بهذه الفُرص، إلا أن خجلي وترددي هما السبب في كل ما يحدث لي، أخشى أن أتهم بأنني أحاول الهروب من الساحة، أخشى أن يقال عني إنني أنتهز الفرص كيما أغيِّر نمط الحياة التي لا أريدها.

وجد نفسه أمام مقهى إبراهيم، همس:

- سأشرب الشاي ثم أذهب إلى هدفي أو إلى حتفي لا فرق!

نبهه من شروده صوت أحد الأصدقاء القدامى مسلمًا عليه، تصافحا ثم طلب الشاي له، قال الصديق:

- وائل، ستنطلق مظاهرة كبيرة في الساعة السابعة من هذا المساء، تطالب بوقف القتال في كردستان، وسيكون مكان الانطلاق قرب سينما النصر، كن حذرًا.

ردَّ وائل:

- تنبهت لهذا الأمر، فأفراد الشرطة يحيطون بالشوارع، كيف عرفوا بالخبر؟
- هل ستأتي إلى الموعد؟
- سلام، لدي عمل مهم، إذا أنجزته قبل الوقت المقرر لانطلاق المظاهرة فسوف أكون معكم بالتأكيد، قل لي هل اتخذت العدة لمواجهة عدوان الشرطة؟

قال سلام وهو يضغط كلماته:

- لقد اتخذنا العدة بكل طارئ، ومن الآن وصاعدًا على السلطة أن تفهم أن الحزب لن يقف مكتوف الأيدي أمام تجاوزاتها، شكرًا للشاي الطيب وإلى لقاء، سأغادر الآن.

انسحب وائل بهدوء، توجه نحو هدفه، إن المقر في نهاية الزقاق الثالث المؤدي إلى شارع أبي نواس، شعر بوهن في قواه وقلق يعصف بأعماقه، تساءل بهمٍّ ثقيل: "أين إرادتك يا وائل، إنها الخطوة الأولى يا رجل، ومع هذا فإن شيئًا في داخلك يحترق ويلتهب، ما هذا الذي أنت فيه؟ عليَّ أن أتماسك وألجم تلك المشاعر التي انطلقت في لحظات الضعف".

أبصر اللوحة الكبيرة المعلقة فوق الباب، لا أحد في الزقاق سوى بعض الأطفال يلعبون أمام أبواب بيوتهم، تجاوز المقر بعد أن ألقى نظرة على مدخله، إنه لا يرى أحدًا، وصل إلى شارع أبي نواس، توقف قليلاً ثم كرَّ راجعًا ثانية نحو هدفه، عبر عتبة الباب الواسعة، ثم مدخلاً إلى يمينه باب جانبي مفتوح على مصراعيه، علقت فوق الباب لوحة خشبية كتب عليها "الاستعلامات"، مدَّ بصره إلى الداخل، بدت له الغرفة واسعة في صدرها المقابل يقوم مكتب كبير، ينتصب على جانبه جهاز هاتف أسود اللون، في وسط الغرفة طاولة تكدست عليها صحف ومجلات، على المقاعد التي تحيط بالطاولة؛ جلس بعض

الأشخاص يتشاغلون بقراءة بعض الصحف أو المجلات، دخل ووقف ثابتًا ثم ارتفع صوته:

- السلام عليكم.

سمع همهمة لكنه تقدم إلى أحد المقاعد، جلس بهدوء وهو يمسح بمنديله عرقًا تصبب من جبهته، ارتاح للجو اللطيف الذي تنشره مبردة كبيرة وضعت على شباك الغرفة المطل على الزقاق، رد تحيات بعض الجالسين:

- الله بالخير، الله بالخير، أهلاً.

بدأ يستطلع ما يحيط به، في هذه الأثناء دخل شاب أسمر طويل القامة قوي الجسم، قال وهو يجلس على الكرسي خلف المكتب:

- أسف، لقد تأخرت عليكم.

ثم بدأ يقلب أوراقًا بيده ويصفها في درج المكتب، تنبه لوجود وائل فحياه:

- أهلاً وسهلاً.

رد وائل مبتسمًا:

- أهلاً بكم.

لفترة قصيرة التقت عينا وائل بعيني الشاب ذي الوجه الغليظ والعينين الجاحظتين، رمقه بنظرة غير مريحة وهو يقول:

- الله بالخير رفيق!

رد وائل هامسًا:

- الله بالخير.

ساد الصمت ثانية، سمع صوت ماكينة طباعة يتحرك ثم يسرع في عمله، غطى على كآبة السكون التي كانت تغطي المكان، في هذه الآونة التفت إلى الأمام، تساءل في سره: "ماذا تفعل هنا أيها الماكر؟".

تصافحت نظراتهما إلا أن الآخر غطى وجهه بالصحيفة التي كان يمسك بها ويتظاهر بقراءتها، "سعد حكمت" أيها العزيز؛ منذ متى لم نلتق، تُرى هل جئت قبلي؟ ما هو حالك الآن؟ تنبه على صوت الشاب الذي يجلس خلف المكتب يسأله:

- هل من خدمة أقدمها لك أيها الرفيق؟

بصوت محايد وهدوء مقتدر رد عليه وائل:

- لست رفيقًا بعد. أريد مقابلة الأستاذ "أبو سليمان" إن أمكن من فضلك!

شعر وائل بشيء من الانفعال يشوب صوت الرجل:

- لا يمكن مقابلة السكرتير العام هذا اليوم وهو يوم جمعة وعطلة كما تعلم، ولكن إذا كان هناك أمر ما مهم فأنا على استعداد لسماعك وكذلك مساعدتك.

في هذه الآونة انبعث صوت حاد وقوي النبرات يقول:

- كريم. يا كريم، تعال حالاً.

لأول مرة يعرف وائل أن الشاب الذي كان يحادثه اسمه "كريم"، هرع كريم منفلتًا من خلف مكتبه وهو يردد بصوت عال:

- حالاً رفيق حميد. سأكون عندك خلال لحظات.

تنبه وائل إلى أن أغلب الكراسي في الغرفة قد خلت من جالسيها باستثناء رجلين ظلا جالسين، يتصفح كل منهما مجلة بيده، في صمته ثمة حديث يدور في أعماقه، هذا أنت يا وائل، لقد بدأت الخطوة الأولى، فما هي خطواتك القادمة، أقنع نفسه أن تصرفاته القادمة تحددها الظروف التي سيواجهها، وعلى أساسها سيبني عليها ما يقرره العقل والإرادة، تداعت في ذهنه كلمات عاصم في صباح ذلك اليوم: "عليك أن تتخذ قراراتك بحسب الظروف التي تحيط بك".

وأنت يا راجحة، أيتها الروح التي بها أحيا، وإليها ألتجئ كلما أحسست بقسوة الدنيا من حولي، منذ أكثر من أسبوع لم ألتقيكِ، أعلم أنك غاضبة عليّ، يا شمسي الأثيرة إن تاريخي يتحول إلى طلاسم، وإن روحي تحتضن أحزان الدنيا، هنالك شيء في الأعماق يصرخ بي: "إلى متى تبقى على هذه الحال، متى تقول نعم أو لا في الوقت المناسب يالمراثيك التي لا تنتهي!".

قطع عليه صوت كريم تداعياته، جلس على كرسيه خلف المكتب، هاتف شخصًا ما بسرعة ثم وضع السماعة مكانها،

أخرج سيجارة دخنها على عجل، كان منفعلاً وقلقًا، خاطب وائل وكأنه وجد مخرجًا ليخفف من تشنجه:

- لم تقل لي ما هو الأمر الذي تريد أن تقابل الرفيق أبو سليمان من أجله.

قال وائل بصوت حاد وهو يقول لنفسه: "اطرق الحديد وهو ساخن":

- لم تقل لي متى يأتي الأستاذ "أبو سليمان"، أريد مقابلته لأمر يخصني!

جاءه الرد خشنًا هذه المرة:

- قلت لك لا علم لي بذلك، قد يأتي وقد لا يأتي، وقلت لك إنني أستطيع أن أقدم أية مساعدة تحتاجها.

قال وائل متجاهلاً ما قاله كريم:

- حسنًا سيد كريم، شكرًا لك.

قاطعه بوحشية:

- أرجوك. قل رفيق كريم.

- حسنًا. رفيق كريم.

قالها مبتسمًا ثم أكمل:

- سأخرج وأعود ثانية عساني أجده.

في الخارج أحس وائل أنه يتخفف من آثام الدنيا، تنفس بعمق، سار نحو شارع أبي نواس، مضى يقطع المسافة بخطى متمهلة ، تساءل وهو يرنو إلى النهر ما هي أخبار المظاهرة، ما الذي حدث، ليس من المنطق أن أذهب إلى المكان الذي دعاني إليه "سلام" ، إنه عمل غير محسوب النتائج، وسأحاسب لو عرفوا بالنتيجة، سأعرف كل التفاصيل، حمدي مصطفى سينقل لي كل شيء ، إنه الآن يفجر طاقاته ، أحسد نفسي على صداقتك يا حمدي، هل يسمع الرجل أصوات الناس وهي تطالب بوقف هذه الحرب المجنونة في شمال الوطن، لا أعتقد! لقد لوى الرجل عنقه بعيدًا عن مطالب الناس.

ترى ماذا تفعليه الآن يا راجحة، سألتقيك قريبًا بالتأكيد، والآن سأرجع ثانية لأعيد الكرة مرة أخرى، عسى أن ألتقي هذا الرجل الذي سمعت به وعنه الشيء الكثير، صاحب التاريخ السياسي الطويل، أو نزيل السجون، وعلى رأسها سجن "نقرة السلمان"، بعد أن مرّ بالسجون الأخرى، ثم حملته رياح ثورة تموز إلى موقفه الجديد، مسألة وقت وسأقابلك أيها الرجل الذي اشتقنا اللقاء به والتعرف عليه.

لمح عن بعد سعد حكمت يسير وحيدًا، ونظارته الطبية ذات اللون الأخضر الغامق لا تفارق وجهه، لقد أصبحت جزءًا منه، إنه الآن لا يراه بالتأكيد، دخل الزقاق المؤدي إلى المقر ،

تسارعت خطواته، اقترب من الباب سمع زعيقًا عن بعد وسيلاً من الشتائم والسباب المقذع، ابتسم وقال في سره: "أول الغيث قطرة ثم ينهمر".

دلف بسرعة إلى الداخل ، تريث قليلاً قبل دخوله غرفة الاستعلامات، طالعه وجه كريم بعينيه الجاحظتين الجامدتين:

- السلام عليكم.

رد جميع الجالسين السلام بلا مبالاة وبأصوات تكاد لا تسمع، قال يتحدث في أعماقه: "منذ اللحظات الأولى فجَّر كريم الموقف بيني وبينه ، وأعتقد أن هذا سيخدمني في المواقف التالية ، سأشكوه إلى أي مسؤول ألتقيه، وسأرى ماذا ستكون النتائج عليه".

بدون مقدمات وجَّه كريم الكلام إليه وكأنه يقول له ضمنًا تفضل بالخروج حالاً:

- لم يأتِ الرفيق أبو سليمان بعد ، فإذا أردت مقابلته فالغد أفضل الأوقات!

ردَّ عليه بهدوء وثقة:

- أشكرك، وسنلتقي غدًا.

في الشارع تقابلك الوجوه المستريبة ترمقك بغضب كأن لها ثأرًا معك أو دينًا قديمًا في عنقك، مازلت غارقًا في لجج لا تدري إلى أين ستقودك أو تأخذك أمواجها، ماذا؟ هل هي لعبة ألعبها مع

الآخرين ومع نفسي أم عمل، أضع أول خطواتي على طريق ولا أدري إلى أين سيمضي بي النجاح أو الفشل، أين الحقيقة يا هذا؟... هل هي في عقلك، أم هناك في الشواطئ النائية؟ عليك أن تغرس قدميك في أرض هي غير أرضك، وأن تندس في عيون الناس علك تجد أجوبة عن أسئلة كثيرة مازالت تعبث بقناعاتك، والآن غادر المكان بأقصى ما تستطيع من سرعة، صوت عابث وخبيث في أعماقك يصرخ بك أنت محبط، لكن الذي يريح عقلك وأعماقك ذلك الصوت الهادئ الرصين الذي يرد عليه مقطعًا أنفاسه: "بل حققت الكثير، وربحك الكبير والحقيقي أنك تعمل من أجل الآخرين، وقد لا يشعر بنا الآخرون بل إنهم لا يهتمون بما نعمل، إنها مسألة وعي، لكن التاريخ يحتاج لمن يدفع عجلته إلى الأمام، ونحن من يدفعها، بل ونقدمها لتصل إلى أهدافها المرجوة، وفي الطريق الطويلة لابد من مسحة لإعادة النظر في أمور كثيرة".

ينتبه على أصوات تزعق بقربه: "انتهازي، خائن، قذر، قدت نحو شارع أبي نواس، غادر بأسرع ما تستطيع".

الأصوات مازالت تطارده، تجلده بقسوة تستبيح دمه، مرق من تحت الجسر الجمهوري ثم انعطف يمينًا، تقدم نحو الساحة الكبيرة التي يحبها، طالعه النصب العظيم، هذه القطعة البرونزية قالوا إنها ترمز إلى الحرية، إنها كتلة طائرة في فضاء واسع،

اليدان تتوجهان نحو فضاءات مفتوحة، فإن المعنى هو أن لا حدود للحرية، هي الحياة بأجمعها، هي الحضارة والتقدم، هي السفرة الرائعة للإنسان منذ خروجه من تلك الأغوار إلى أجواز الفضاء الغامض البعيد، مهيب هذا البناء حقًا، وأعتقد أن اللوحة عندما تكتمل سيكون لها شأن وأي شأن.

راجحة يا حبيبتي؛ ماذا تفعلين الآن؟ متى أفني حزني بين يديك، سلام عليك في هذا المساء وكل مساء، متى أرى الوجه الحبيب خاليًا من ذرات الأسى التي تلتصق بسماته.

- مساء الخير أستاذ وائل.

كمن يستفيق من نوم عميق، تنبه تمامًا، رآه ينتصب أمامه بطوله الفارع ووجهه ذي التعابير العميقة رد بود:

- أهلاً أستاذ يوسف، آسف لم أتنبه، كنت أجري وراء خيالاتي.

ضحك يوسف بصوت عال، ورد هازلاً:

- كلنا هذه الأيام نسافر مع الأخيلة، تُرى متى نصل محطات الحقيقة؟ هل ساهمت في مظاهرة سينما النصر هذا المساء؟

- كلا. كلا، بل إنني لا أعرف شيئًا عنها.

وضع يوسف يده على كتف وائل، قال معاتبًا:

- لاحظ إنكم تصعدون الموقف مع السلطة في وقت تفاوض فيه شركات النفط الإجرامية، ثم لاحظ إن الحرب تستعد في

الشمال، والبلد في وضع لا يحسد عليه، يحضرني الآن بيت الجواهري الشهير:

أرى أفقًا بنجيح الدماء   تنور واختنقت الألم

واصل وائل صمته، تساءل بعد أن فرغ الرجل من كلامه:

- أهذا كل ما لدى المناضل القديم؟ قل لي ماذا تقترح؟

ضحك يوسف ضحكة عالية وهو يشير إلى النصب القريب منهما:

- توجه بسؤالك هذا إلى جواد سليم، ربما تجد الإجابة عنده، وداعًا وائل، يوم ما سنلتقي وأرجو أن يكون الحال أفضل مما هو عليه الآن، التوقيع يوسف عبد الحي.

لوح بيده ثم مضى مسرعًا نحو شارع الكفاح، ظل وائل واجمًا بعض الوقت، ثم همس: "سأذهب إلى المقهى الذي يضم بين جدرانه أصدقاء العمر".

توقفت السيارة أمام مدخل زقاق أبي سيفين، دخل الزقاق ثم وقف على باب المقهى، تلقاه ناصر بابتسامته المعهودة وترحيبه الصادق:

- أهلاً أستاذ وائل، الجماعة بانتظاركم.

هتف حمدي مصطفى.

- لا أصدق، فتشتُ عنك في كل الزوايا لم أجدك، أين اختفيت؟

جلس بجانبه ، وضع ناصر الشاي المطيب بالهيل أمامه ، قال بهدوء حزين:

- حمدي. لم أختفِ ، أصلاً لم أشارك في المظاهرة ، وعليك وأنت تتكلم أن تخفض من صوتك ، إني لم أبلغ بشيء من هذا القبيل.
- وائل. لست على ما يرام ، ماذا هناك ، وجهك باهت اللون والملامح، تتحدث وكأن مصيبة حدثت، ما الأمر؟
- حمدي أكمل عشاءك، لا تقلق بشأني، لا شيء بي سوى أنني مأزوم بعض الشيء.
- لم أقل لك ، لقد كانت المواجهة بيننا وبين رجال الشرطة شرسة جدًا ، حاولوا تشتيت المظاهرة منذ لحظة انطلاقها ، لكننا أخذنا المبادرة منهم ، لقد تفرقوا بعد حين وحققت المظاهرة هدفها الأساسي، إنه تمرين جديد، والمواجهة كما أعتقد ستستمر، لماذا لا تشاركني الطعام؟ ألا نتمشى قليلاً؟.
- لا. سأذهب إلى البيت ، أنا متعب ، لدي الكثير مما ينتظرني في الغد، سنلتقي في الوقت المناسب.

مضى حزينًا ، تصطرع في أعماقه مشاعر شتى، الطريق إلى البيت ليس طويلاً ... فتح الباب ، توقف قليلاً ، هاله السكون الذي يخيم على البيت، أغلق الباب ومضى إلى زر الكهرباء، ضغطه فانتشر الضوء في ساحة البيت، ثم فتح كهرباء الغرف

الباقية، الواحدة تلو الأخرى، عاد إلى غرفته، رمى بنفسه على كرسي قريب من فراشه، نظر إلى الصورة، تساءل متى أعادها هذا الملعون، يا لحمدي من صديق حبيب إلى النفس، ويا لها من رفقة قديمة، منذ الأول متوسط وحتى اليوم، أين أنت أيتها الوالدة الحبيبة ، أراكِ الآن وأنتِ تضعين "كرم" في حضنك وتمسدين شعره الطويل، إنه حفيدك من ابنتك الوحيدة "آمال" ، إنها الأثيرة لديك ، هكذا حال الأمهات عندما يكبرن ، يجدن سلوتهن وسعادتهن مع بناتهن، ولقد تعلقت بها كثيرًا منذ رحيل الوالد، يا للوحشة! أية تداعيات هذه التي تستذكرها أيها الولد البائس ، لماذا لم تذهب إلى بيت أختك لتشاركهم فرحهم بعيد ميلاد "كرم" كالعادة ، سأزورهم في الوقت غير المناسب وسأعتذر وسأقدم هديتي له وأقبله.

سمع مفتاحًا يدور في قفل الباب، ثم دخلت والدته، يا للمفاجأة. هتف وهو يستقبلها بحب فاض من كل جوارحه:

– الله الله. لا تقدرين على مفارقتي أبدًا.

قالت بصوت بدا له متعبًا هذه المرة أكثر من أي وقت سابق، إنها تلهث:

– اسكت. آمال عاتبة عليك، وكذلك ماجد، كرم يحاول أن يلفظ اسم خاله العظيم، لقد فاتك العشاء الفاخر والجلسة الحلوة، بالمناسبة، راجحة مع أمها كانتا هناك، ولقد فرحت بهما

كثيرًا ، سألتني والدتها عنك ، وعتبت عليك كثيرًا لأنك لم تزرهم في بيتهم الجديد في حي ١٤ تموز ، والله قلت للجميع لا تتعجبوا ، أنا نفسي لا أراه إلا قليلاً... أين قضيت الوقت؟

– هنا وهناك ، في المقهى ومع الأصدقاء.

– لدي حديث طويل معك ، سنتكلم غدًا في تفاصيله ، الآن أذهب إلى فراشي فأنا متعبة ، تشبثت بي آمال وطالبتني بالبقاء ، قلت لها لن أتركك وحيدًا ، تصبح على خير.

– وأنتِ بألف خير.

انطرح على سريره ، أبقى المصباح مفتوحًا ، طافت عيناه في أرجاء الغرفة ، كان هواء المروحة حارًا بعض الشيء ، ها هو التيار يأخذه بعيدًا ، ينأى به عن عالمه الشاحب هذا ، راجحة. عبر وجهك الحلم ، تواق أشجار روحي بالحب والأمل ، متى أتخفف من آلامي وأتعابي ، لأتطهر في نهرك الصافي الطهور ، ثمة خوف يملأ أعماقي ، أخشى ألا أجدك في يوم ما قريبة مني ، خوف يمتلئ به كياني كله ، هاجس يعبث بي بلا رحمة ، هل يقوى الحب على تجاوز ما تضعه الحياة من ألغام في طريقه؟ لا أدري لماذا لا أثق بالقادم من الأيام ، ما هذا التيه الذي أنا فيه ، بودي أن أرسو على شاطئك الأمين ، ولكن متى؟ متى أيتها الأمنية القدر؟

(٣)

راقبته باهتمام وهو يرتدي ملابسه ويستكمل ما يحتاج إليه مظهره ، سمعته يدندن بصوت خافت لحن إحدى الأغنيات الشائعة، خاطبته وهي مزهوة بمنظره:

- إلى أين العزم يا ولدي، لا أنتظر جوابًا منك لأنني أعرف إلى أين ستذهب ، أقسم أنك ستلتقي راجحة ، أليس كذلك أيها الماكر؟

ضحك بحبور ثم رد عليها بسعادة فاضت من كل جوانحه:

- بلى يا أمي، سأمر عليها في الدائرة، ومن هناك سنتجه إلى بيت آمال في الصالحية ، ألديك اعتراض على هذا المشروع الجميل أيتها الأم العظيمة؟

- أردت الحديث معك حول شأن آخر مهم، أنت تعلم أنني أكاد أكون شبه وحيدة في هذا البيت الذي خلا من ساكنيه بفضلك ، ومنذ رحيل والدك رحمه الله.

تمتم:

- رحمه الله.

أكملت بعد هنيهة:

- أقول الآن علينا أن نغير مكاننا، يعني سكننا، كلمتني آمال بذلك وهناك بيت جديد قريب منهم، ستكون الوحشة بعيدة عني يا وائل، أنت لا تعلم كم هي ثقيلة هذه الأيام التي تمر عليّ، أنا مقتنعة بالفكرة، وأرجو أن توافق أنت عليها أيضًا، أما بيتنا هذا فإما أن نبيعه أو نؤجره، أعتقد أن لا إشكال في هذا الأمر، أغلب الناس تغير سكنها، أبو راجحة انتقل إلى مكانهم الجديد في حي تموز بعد أن بنى القطعة التي حصل عليها، بالمناسبة ماذا فعلت بشأن قطعة الأرض التي حصلت عليها من الجمعية، سمعت أن مكانها جيد جدًا، لا تبعها أبدًا، لا تفعل هذا أبدًا أبدًا، إن السيدبة مكان جيد وسيكون موقعها على الشارع العام.

أجابها بعد صمت قصير:

- أولاً لا اعتراض على رأيك الأول، فأنا أعلم مدى تعلقك بآمال، وإذا كان البيت قريبًا منها ويشعرك بالراحة فأنا موافق، أما قطعة الأرض فأنا لم أفكر قط حتى اللحظة بما سأفعله بها، ومادامت رغبتك هي الاحتفاظ بها فأنا لا أخالف رأيًا لك، أيضًا فأنا لست بحاجة لثمنها، ولا رغبة لي في بيعها.

قاطعته مرتاحة:

- أرحت نفسي، الله يريح قلبك ببنت الحلال.

ضحك وقال معابثًا:

- هل مللتِ رفقتي يا أمي؟

بشيء من الانفعال ردت عليه:

- اصمت. إنك أنت بصري الذي أرى من خلاله طريقي.

رد ضاحكًا:

- إذن وداعًا، لا تنتظريني على الغذاء.

- كما تشاء ، سلم على راجحة وقل لها إنني سأزورهم في أقرب فرصة.

- مع السلامة.

- في أمان الله.

ما أن تراءى له مصرف الرافدين حتى أحس بأن قلبه يسقط بين قدميه ، هذه الحالة لم تفارقه منذ عرف راجحة في أيام الدراسة في كلية الآداب، والآن تستمر الحالة، هل الخوف جزء من الحب أم الحب هو الخوف نفسه؟.

كانت شركة التأمين الوطنية والتي تعمل فيها راجحة تحتل طابقًا من طوابق عمارة مصرف الرافدين ، سيتصل بها من خلال موظف الاستعلامات:

- صباح الخير.

رد موظف الاستعلامات مبتسمًا:

- صباح النور. تفضل.

- أرجو أن أكلم الموظفة راجحة خالد في القسم البحري.

- حالاً حالاً. دقيقة من فضلك.

بعد لحظات ناوله سماعة الهاتف.

- صباح الخير.

ردت من الطرف الآخر:

- هالو وائل.

- خذي إجازة وسأنتظرك.

- خلال عشرة دقائق سأكون معك.

- مع السلامة.

ناول السماعة إلى موظف الاستعلامات وهو يتمتم:

- شكرًا لك.

سمع وقع أقدام سريعة تنبه أنها تتجه نحوه ، سلمت على موظف الاستعلامات، ثم خاطبته قائلة:

- ما الذي ذكرك بنا.

رد بصوت مرتجف:

- راجحة هيا نخرج.

خرجا معًا ، توجها نحو شارع النهر ، كان صامتًا وكذلك هي ، لكنها سرعان ما قطعت الصمت متساءلة:

- لماذا لم تأت لحفلة عيد ميلاد "كرم"، رأيت آمال منزعجة لعدم حضورك.

- من حقها علي، كنت مشغولاً ومرتبطًا بموعد.

تساءلت:

- إلى أين؟

- معكِ لا أسأل مثل هذا السؤال، المهم أن نكون معًا.

قالت متهكمة:

- واضح جدًا. بدليل أننا لم نلتق منذ ما يزيد على الشهر.

- أشعر وأنا في الطريق إلى اللقاء بك أنني نزفت أغلب دماء عروقي قبل قليل، كنت أتساءل هل الخوف جزء من الحب أم العكس.

بقيت صامتة يبدو عليها شرود واضح، أكمل:

- سنتناول الغذاء في مطعم "عمو إلياس" ونشرب الشاي في بيت آمال، ستكونين شفيعتي لديها، وسأعود بك إلى بيتك في نفس وقت خروجك من الدائرة كل يوم، ما رأي واحتي الظليلة؟

- كما تشاء.

- بالمناسبة، سأشتري هدية كرم، هذا دين وواجب.

دخلا المطعم ، انتبذا ركنًا في زاوية بعيدة بعض الشيء عن الباب، كان المطعم في هذا الوقت شبه خال إلا من بضعة أنفار يتناولون غذاءهم فيه، قالت بوجه جاد وصوت ثابت:

- إلى متى سنلتقي بهذه الطريقة يا وائل؟ لا أكتمك هناك ضغوط كبيرة علي في البيت وفي الدائرة أيضًا.

تفرست في سمات وجهه ثم أطلقت آهة وأكملت:

- إنني أتساءل وأحتاج إلى جواب واضح من الإنسان الذي أحببته منذ عهد الصبا الأول وحتى الساعة ، والذي يبتعد عني يومًا بعد آخر ، أجبني ، ما هو حصاد سنوات علاقتنا؟ إلى أين نمضي؟

وضع العامل الطعام أمامهم ومضى، قالت:

- صمتك يعذبني، أجبني، قل أي شيء.

امتزج كبرياؤه بحزنه ، شخص إليها بعينيه ، رأى عينيها تطرفان بسرعة، ووجهها اكتسى بغلالة أسى شفيف.

- وائل. ماذا تنتظر ، الزمن يسرقنا ، إنه يمتص أحلى وأجمل أيامنا، أخشى أن يلحق بها أحلامنا.

- هل تظنين أنني أقل منك شوقًا أو عملاً لتحقيق حلمنا الرائع هذا ، إنني بحاجة إليك كل لحظة من لحظات عمري. لكن يا آنستي لا أجد الوقت المناسب كي أعمل ما تريدين مني عمله ، ولذلك أنا أخشى القادم من الأيام ، أنا رجل قضية كما

تعلمين ، ولا أعلم ما يخبئ لي المستقبل ، لا أريد أن أجرك إلى غابة أشواكي وأظلمك معي ، إنني أحمل جراحاتي يا راجحة ولا أريد لآلامي أن تؤثر على صفوك أو حياتك ، أرجو أن لا تظلميني ، إن الذي يخفف عناء الحياة وآلامها عليّ هو أنتِ ، هو حبك وصبرك ، إنني أطرد حزني بك ، وأبعد آلامي من خلالك.

- وائل. أنا أرى أنك تلهث خلف حلم مستحيل ، لا أريد أن أردد على مسامعك كلمات كبرنا عليها ، أو غادرناها منذ زمن ، حبي لك لا ينقطع ، سيستمر معي حتى أخر لحظات عمري ، لكنه العمر. العمر يا وائل يجري مسرعًا ، أتعلم أن بعض الزملاء الذين تخرجوا معنا تزوجوا وأنجبوا أطفال؟، إنه حقًا مشروع ينبغي لنا أن نحققه.
- هل تتصورين لحظة واحدة أنني غافل عن كل هذا ، أنا أكثر حاجة منك للاستقرار ولكن أين هذا الاستقرار؟ إن كل ما يحيط بنا يهدد حياتنا ومستقبلنا.

أكملا غذائهما. سارا معًا صامتين ، كان الجو لافحًا ، قال:

- لحظة من فضلك.

أمام محل كبير لبيع الهدايا بجوار سينما ريجنت اشترى علبة بسكويتات كبيرة ، ثم توجها نحو بيت شقيقته آمال ، فتحت آمال الباب ورحبت بهما ، تبادلت القبلات مع شقيقها ، ثم رفع وائل

"كرم" بين يديه، قبله وضمه في حضنه بعد أن جلس وراجحة في غرفة الاستقبال، قالت آمال:

- راجحة الصديقة والأخت لم تنس أيامنا. لكن الغريب أن الشقيق الوحيد هو الذي نسي!

- لم أنس يا آمال، لا أيامك ولا أيامي، لكنها لعنة هذا الزمن الرديء تأخذ كل وقتي، وها هو جلدي أمامك وأمام راجحة، إنه يتحمل الطعنات!

غيرت آمال الحديث وخاطبت راجحة:

- راجحة. هل تلاحظين الشبه الكبير بين سمات كرم وخاله؟ كم أنا سعيدة بذلك.

ردت راجحة:

- أرجو أن يشبهه في الشكل فقط، لا في...

ارتفع ضحك وائل وآمال سويًا، قالت آمال:

- والله من حقك، هذا الولد بحاجة إلى عقاب.

رد وائل:

- شكرًا لمشاعركما وإطرائكما.

خاطبت آمال شقيقها:

- لها الحق أيها الظالم، ماذا تنتظر؟! حتى ماجد غير مرتاح على حياديته الدقيقة كما تعلم يا وائل إنه يعود إلى البيت وهو يردد: "إن الوضع مخيف وقابل للانفجار في أي وقت".

أكملت راجحة:

- لقد اصطفت القوى جميعًا ضد رئيس الوزراء والذين يقفون من خلفه، وهناك الدعم المستمر من أكثر من طرف وجبهة تقف جاهزة للحظة المناسبة، هل تتصور أن هذه الجموع التي لا حول لها ولا قوة تستطيع أن تقف أمام أسلحة العساكر؟

- هذه نزعة خوف تعبر عن نفسها بصراحة تامة.

قال وائل جملته ضاحكًا، قطعت آمال الكلام قائلة:

- الغذاء جاهز.

قالا معًا:

- لقد تناولنا الغذاء في المطعم ونريد شرب الشاي فقط.

ثم سأل وائل شقيقته:

- هل يأتي ماجد؟

- كلا لديه غفارة حتى العصر.

- بلغيه تحياتي.

غابت آمال ثم عادت بالشاي، قدمت بعده الفواكه والحلويات، خاطبت وائل ثانية:

- لقد أجرنا البيت القريب منا، وأرجو أن تكون أنت والوالدة قريبين منا على الدوام.

- أعرف أن الوالدة يهمها أن تكون قريبة منك دائمًا ، لا اعتراض لدي المهم راحتها.

ضحكت آمال وهي تقول:

- طبعًا لا مانع لديك فأنت طول الوقت خارج البيت.

خاطبت راجحة آمال:

- سأعود إلى البيت ، شكرًا على الضيافة الحلوة والاستقبال الأحلى.

وهما في الطريق إلى الباب لكزت آمال وائل في ظهره، ابتسم وخاطب راجحة:

- ثقي من أنني راغب تمامًا في العيش سويًا ، ولكن دعيني أرتب الأمور.

وجهت راجحة الكلام لآمال:

- هناك ضغوطات قوية تمارس عليّ يا آمال، لقد قلت لك هذا من قبل، فأنا محرجة أمام أهلي، وكل الحجج التي قدمتها لهم أصبحت لا قيمة لها عندهم.

ودعا آمال، قبل وائل "كرم" ، ثم مضيا صامتين ، أوصلها إلى شارع فلسطين، ثم عاد من هناك إلى بيته.

(٤)

تأوه وهو يدلف خلال الباب الكبير المفتوح على مصراعيه ، تمتم بصوت خافت: "آه من وحشة الطريق".

- السلام عليكم.

أجابه صوت سعد حكمت، الذي اجتاحته المفاجأة، بفرح ظاهر:

- أهلاً أهلاً. عليكم السلام.

توجه وائل إلى كرسي يقع قبالة كرسي سعد حكمت اختاره مقعدًا له ، أخرج منديله مسح به وجهه ، ثم رد تحية سعد الجالس بجانبه:

- الله بالخير. الله بالخير.

رفع سعد نظارته ذات اللون الأخضر ثم بدأ ينظف زجاجها بمنديل ورقي، أعادها ثانية فوق أنفه، تساءل وائل وقد انشغل بخلو الغرفة الواسعة:

- لا مكان لذلك الحزب بعد اليوم، سترى كيف أخرجه من هذا المكان.

- ها نحن نلتقي بعد زمن طويل، كأنك كنت متخفيًا طول الوقت ، أذكر أننا كنا في سفرة طلابية إلى المدائن قبل ثورة تموز بأيام.

هزّ وائل رأسه ثم أجاب مبتسمًا:

- أذكر ذلك ولا أنساه.

في هذه الآونة ارتفع صوت كريم الخشن والعدواني، وهو يودع صديقًا له في باب المقر؛ دخل إلى الاستعلامات وقع نظره أول ما وقع على وائل فامتلأت سمات وجهه بالغضب، قال بصوته الجاف:

- السلام عليكم.

جلس خلف المكتب، فتح جراره فيه ثم سحب بعض الأوراق وضعها أمامه، صاح كالملدوغ بعامل المقر:

- مهدي، افتح المبردة بعد قليل سيأتي الرفيق أبو سليمان.

أشعل سيجارته ودخنها نافثًا دخانها، بعصبية ظاهرة، صاح ثانية:

- حمدي.

أجابه العامل بصوت رفيع:

- نعم أستاذ.

- هات نفاضة سجائر.

وضرب المكان بيده.

رد العامل بأدب:

- تأمر أستاذ.

في هذه الآونة دخلت مجموعة من الناس من أعمار مختلفة، تحدثوا معه، سجل بعض الكلمات على ورقة أمامه. وقف العامل مهدي أمامه قائلاً:

- أستاذ كريم، أبو سليمان وصل.

قام مسرعًا من خلف مكتبه، توجه نحو الباب، صاح بصوت عال يقطر نفاقًا وضعة:

- أهلاً بالرفيق "أبو سليمان".

اجتاز الممر رجل عجوز، بدا ثقيل الخطوات، توجه إلى الداخل، لحق به كريم ثم عاد بعد وقت قصير ليجلس على كرسيه خلف المكتب، توجه بالحديث إلى وائل.

- بعد قليل ستقابل الرفيق "أبو سليمان".

رد وائل بهدوء:

- شكرًا.

في هذه الآونة اجتاز الممر رجل في الأربعين من عمره، كأنه العاصفة، قام كريم ومضى خلفه وهو يقول بشيء من الخوف:

- الرفيق عبد الحميد صمد رئيس التحرير.

بعد دقائق قليلة عاد كريم ثانية إلى الغرفة، خاطب قائلاً بهدوء غريب:

- هيا تفضل معي، الرفيق أبو سليمان بانتظارك.

خرج برفقته إلى داخل البيت ، واجهته ساحة البيت الكبيرة والتي تتوسطها نافورة تتدفق منها مياه على شكل خيوط رفيعة حيث تنزل ثانية إلى حوض يحيط بها ، كان رذاذ الماء ينتشر حول النافورة والمساحة التي تحيط بها ، التفت إلى الرجل الذي يجلس على كرسي وثير ، بعد أن انسحب كريم من المكان ، وكان مجلسه وسط "طاولة" ارتفعت أرضيتها قليلاً عن مستوى أرضية البناء ، فتنبه إلى أن صمته قد تجاوز الحدود المعقولة ، كان الرجل ينظر إليه تارة ، وإلى رذاذ الماء المتصاعد من وسط النافورة ، قال وقد أحس بشيء من الخجل ، وبصوت هامس:

- مساء الخير.

رد الرجل بأدب جم وصوت عميق النبرات:

- مساء الخير ، تفضل.

أشار إلى كرسي مجاور جلس عليه ثم أكمل بذات الصوت والنبرات:

- قال لي كريم إنك تريد مقابلتي.

رد وائل بكلمات لا يدري أين تقافزت إلى ذهنه ، وتجمعت على شكل جمل ، تدفقت من فمه الذي كان يظن أن صمته سيطول وقد يخذله الموقف وهو ينظر إلى أصابعه التي تشابكت ببعضها ، قال:

- هذا لقاء سأحتفظ بلحظاته في ذاكرتي، كان اللقاء بك بالنسبة لي أمنية عزيزة على نفسي، وها أنا أحقق تلك الأمنية.

ثم استدرك وائل بلطف واضح:

- عفوًا أيها الرفيق، لقد سبقتني عواطفي إليك.

مرت لحظة صمت ، استطاع وائل أن يلمح شبه ابتسامة أو ابتسامة وادعة وقورة ترتسم على وجهه. مازالت عينا وائل تطوف في سمات ذلك الوجه الوديع الذي لم يودع وسامته بعد رغم ما تركته السنون عليه ، عينان صغيرتان لامعتان ، أنف رفيع طويل يفصله عن الشفتين الرقيقتين ، شارب أبيض كث تتهدل بعض شعيراته على الشفة العليا ، خالط بياضه صفرة بسبب دخان السجائر ، أما شعر رأسه فكان أبيض مسترسل إلى الوراء، يجلل الوجه بمهابة ارتاح وائل إليها، الغريب أن شعورًا داخله كأنه يعرف الرجل منذ زمن بعيد ، أخرج الرجل علبة سجائره، قدم واحدة منها لوائل ثم أشعل لنفسه الثانية، قال بعد أن أخرج دخان سيجارته مع الكلمات التي انسابت من بين شفتيه:

- تفضل. إنني مصغ إليك.

هذه المرة شعر وائل بأن الكلمات رحلت عنه وغابت عن الذاكرة ، وهربت بعيدًا ، ثمة فراغ يتسع في الأعماق كأنه بئر عميق لا قرار لها، من أين أبدأ يا ترى؟ وقائمة الأكاذيب تزدحم

بالكلمات ، مازال الرجل يتفرس في وجه وائل بين الفينة والأخرى ، وينتظر كلماته ، إنه يخترق أعماقي بنظراته الثاقبة ، إنه رجل تجربة طويلة ، قائد يشهد له في هذا المجال ، كيف يتأتى لي أن أحمل أكاذيبي وألقيها بين يديه ، أعتقد أنه يكشفني ، بل إنه يعرفني ، التقت عيناه بعيني الرجل الوقور ، شجعته ابتسامته المرتسمة على وجهه المتعب ، ودفعته إلى الكلام ، في البدء خرجت الكلمات من بين شفتي وائل متعثرة وبطيئة، ثم ما لبث أن استعاد ثقته بنفسه وتجاوز الظرف بسرعة، قال:

- أنا وائل عبد اللطيف محمود مدرس لغة عربية في متوسطة الفسطاط، انتميت في أواسط الخمسينات للحزب ، ثم تدرجت حتى وصلت إلى عضو متفرعة ، مللت العمل مع جماعة اتحاد الشعب والأسباب كثيرة ومعروضة، يمكن الحديث عنها في هذه العجالة ، أو في أي وقت تقترحه أيها الرفيق ، في أخر محاورة جرت بيني وبين أحد قادتهم المعروفين قلت إنني أعتبر ومنذ اللحظة أن علاقتي انقطعت تمامًا بكم ، ولست آسف على نيتي. أخبرني أنني سأجمد ، وهذا قرار لا رجعة فيه ، قلت بتصميم إنني أعتبر نفسي ومنذ اللحظة لا علاقة لي بكم ، سواء اتخذتم قرارًا بتجميدي أم لا ، لقد انقطعت صلتي بهم تمامًا ودون رجعة.

كان الرجل الكبير ينصت ويستمع باهتمام كما لو أنه يسبح في عالم آخر من الأفكار، كانت ابتسامته الوادعة مازالت تسيل رقة على سمات الوجه المتغضن، كانت عيناه تقتحمني، كأنه يسبر أغواري، أحس وائل براحة المسافر حين يصل هدفه بعد عناء، سمع الرجل يقول كلمات واضحة:

- أحسنت صنعًا، على كل حال هذا حزبك أيضًا، ومجالك الذي تستطيع أن تعمل وتبدع من خلاله، لقد قررت أن تبقي أبوابه مشرعة تستقبل أي مناضل يريد العمل الحقيقي والخلاق وسط أجواء ديمقراطية تتسم بالروح الرفاقية العالية، إننا جميعًا نعمل من أجل تحقيق أهدافنا المشتركة وكل حسب طاقته وإمكاناته وإبداعه.

قال وائل:

- سأكون عند حسن الظن دائمًا، والأيام القادمة شاهد على قولنا وعملنا.

في تلك اللحظات جاء كريم ليقول:

- رفيق. البيت يطلبك

هز رأسه ثم قال له:

- كريم.

أجابه كأنه شرطي:

- نعم رفيق. نعم.

- أوصل الرفيق وائل إلى غرفة الرفيق عبد الحميد وقل له أن ينظم له استمارة انتماء ويجري اللازم معه.

قام وائل وهو يقول:

- شكرًا لثقتكم الغالية.

ثم توجه مع كريم الذي تقدم نحو سلم أدى بهما إلى الطابق الثاني، مازال كريم يتقدم وائل وهو يتلفت بين الحين والآخر نحوه، توقفت أمام باب غرفة بابها موارب، دق كريم الباب ثم فتحه.

- الله يساعدك رفيق حميد.

رفع الرجل رأسه بعنف عن الأوراق التي كان يكتب عليها، والتفت بحدة نحو كريم وعيناه محمرتان، تساءل:

- ما معنى الله يساعدك هذه؟ هل نحن في جراج سيارات مثلاً، أو في مقهى؟! إلى متى ستبقى سوقيًا في كل تصرفاتك وكلامك، هذب ألفاظك وتأدب في الكلام، أسمعت؟.

- حاضر رفيق. حاضر.

قالها بوجه علته غيمة كدر كبيرة، سأله بنفس الحدة:

- ماذا تريد؟

رد كريم مسرعًا:

- الرفيق أبو سليمان أرسل لك الرفيق كي تنظم له استمارة انتماء مع إجراء اللازم.

أطلق حميد شحنة هواء من أنفه وبصوت مسموع ثم قال آمرًا:

- اذهب أنت.

انسحب كريم وبقي وائل واقفًا، إلا أن حميد رفع رأسه نحوه، حياه وائل بابتسامة وبصوت هامس:

- مساء الخير.

ارتاح عبد الحميد للشاب كما يبدو فأجابه بلهجة مختلفة تمامًا عن اللهجة التي كان يكلم بها كريم:

- مساء الخير، أهلاً. تفضل.

جلس وائل على كرسي قبالته، كانت غرفته صغيرة، والمكتب أمامه يزدحم بالصحف والمجلات، وبعض الكتب تناثرت هنا أو هناك، ثمة باب مفتوح يؤدي إلى غرفة واسعة لمح داخلها مكتبًا غاية في الضخامة والأناقة، وصورة كبيرة لرئيس الوزراء ببدلته العسكرية، تتوسط الحائط المقابل له.

عاجله وهو يطلق شحنة الهواء الكبيرة من أنفه وجبهته تتصبب عرقًا رغم هواء المبردة.

- ما الأمر؟

- انتماء جديد!

رد وائل بأدب جم ثم أردف:

- الرفيق أبو سليمان يرجوك أن تنظم استمارة انتماء لي إذا رأيت ذلك مناسبًا.

تسلقت نظرات عبد الحميد وجه وائل بسرعة ووحشية كأنه يعاني من حالة عصاب مزمنة، ثم قال:

- سوف تجيب على بعض الأسئلة قبل أن تقوم بتنظيم الاستمارة، وسأبدأ بطرحها عليك:

* أين كنت تعمل قبل أن تتوجه نحو حزبك؟

* ما هي الأسباب التي دعتك للانضمام إلينا؟

* ما هي الأخطاء التي وقعوا فيها أو ارتكبوها أثناء العمل؟

قال وائل مبتسمًا بعد أن رفع يده:

- لو سمحت رفيق؟

- تفضل.

- كيف سأجيب على كل هذه الأسئلة مرة واحدة وهي أسئلة دقيقة وموضوعية ، أعتقد أن كل الأجوبة سأكتبها لك بالتفصيل حتى لا أقطع عليك الوقت الذي أرى أنك بحاجة له.

رآه ينتشي ويعتدل في جلسته ثم يقول:

- أحسنت. ذلك أفضل.

أكمل وائل:

- هناك أسئلة مهمة أو هكذا أرى ، بودي أن أستفيد من أجوبتكم عليها آخذًا بنظر الاعتبار التجربة الكبيرة وأثره بنضالكم الطويل وثقافتكم الواسعة.

بلغ الانتشاء بالرجل نهايته، رد بصوت لطيف:

- شكرًا لك على هذا المديح ، لم نقم إلا بواجبنا ، تفضل بأسئلتك.

- ثمة سؤال آراه مهمًا وهو كيف يقيم أو يقوم الحزب المرحلة القادمة، أيضًا ما هو الموقف من الجبرية الوطنية، كذلك ما نوع العلاقة المستقبلية مع جماعة اتحاد الشعب، كيف نقنع الأخرين بصواب مواقفنا وتوجهاتنا ، هناك أيضًا الحرب في الشمال ، هناك الواقع في المنطقة ، هناك التغير الواضح الملامح في سلوك السلطة وتوجهاتها التي تثير كثيرًا من الأسئلة وعلامات التعجب.

رد عبد الحميد:

- لدي سلسلة مقالات ستنشر باعًا في الأيام المقبلة ، ستجد فيها كل الأجوبة على أسئلتك هذه وغيرها، دعني الآن أكتب لك الاستمارة وأرجو أن تكون يدًا قوية تساند الخط الثوري الذي يتجه إليه الحزب.

- سأكون عند حسن الظن ، ولكن أيها الرفيق العزيز لدي شكوى!

حدَّ الرجل بصره في عيني وائل ثم قال:

- تفضل.

- كريم إنسان خشن ، ولا أعتقد أنه يصلح لمكان مهم هو الاستعلامات، والتي تمثل واجهة الحزب أمام الآخرين.

انفجر عبد الحميد كأنه كان ينتظر هذا الكلام:

- هذا الإنسان الحقير الملوث لابد للحزب أن يتخلص منه، ومن هذه اللحظة ستكون أيها الرفيق وائل مسؤولاً للاستعلامات.

ثم قام بعصبية خارجًا من الغرفة، خاطب أبو سليمان:

- أبو سليمان. كريم لا ينبغي أن يبقى في الاستعلامات، سوف تكون من مسئولية الرفيق وائل، ومنذ هذه اللحظة.

أجابه صوت أبو سليمان هادئًا عميقًا:

- كما تشاء أيها الرفيق حميد، كما تشاء.

صرخ حميد:

- كريم. يا كريم.

خرج كريم سريعًا ووقف وسط ساحة البيت وقال بذلة واضحة:

- نعم رفيق حميد.

- من هذه اللحظة ستكون إدارة الاستعلامات في عهدة الرفيق وائل، وعليك أن تساعده في كل ما يطلبه منك.

- حاضر رفيق. حاضر.

رجع حميد إلى غرفته، جلس على كرسيه وهو يقول متوعدًا:

- السافل السوقي أية ريح ساقت هذا الملوث إلى هنا سأعمل على طرده في أقرب فرصة سانحة.

قام وائل مستأذنًا، مد يده صافح حميد الذي قام واقفًا أيضًا، ثم مضى نحو السلم، توجه حيث يجلس أبو سليمان استأذنه في الانصراف اجتاز وائل الممر المؤدي إلى الباب الرئيسي، مضى غير عابئ بنظرات الحقد، التي شبعه بها كريم، خرج وهو يسير مسرعًا في الشارع لقد حقق ما لم يحلم به، وبوقت خرافي، كم الساعة الآن يا وائل، إنها التاسعة، حسنًا إلى مقهى أبي سيفين، إلى مجموعة الأحبة هناك، لكن مهلاً ما هذه السيارة الفاخرة من نوع "الشفروليت" تقف بجانب باب المقر، يجلس سائقها وراء المقود، أكيد إنها السيارة التي وضعت في خدمة الأستاذ أبو سليمان، ستتضح الأمور أمامك شيئًا فشيئًا، إن هذا المكان تحيط به كثير من الأسرار والألغاز، وعلينا أن نعرف ما يحيط بنا كي نتصرف على أساسه، وجد المقهى مزدحمًا، وكالعادة استقبله ناصر بابتسامته الحلوة الرصينة، قال ناصر:

- الجماعة يخوضون حربًا، فريق مع حمدي الآخر ودود.

صاح ودود:

- أستاذ وائل تعال لتكون شاهدًا على هزيمة صديقك حمدي المحققة.

رد حمدي وهو ينقل بعض قطع اللعبة:

- من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا.

ثم التفت إلى وائل:

- اسمح لي أيها العزيز بدقائق ريثما أنتهي منه.

انتهت اللعبة بفوز حمدي، قال مخاطبًا الجميع:

- الشاي على حساب ودود.

قال ودود ضاحكًا:

- الشاي مع العافية للجميع، ناصر صب الشاي للجميع.

التفت وائل إلى حمدي وهو ينتهي من شرب شايه:

- هيا نخرج أشعر بأني أختنق.

- هيا وأنا مثلك، دعنا نخرج يا صديقي.

تجاوزا ساحة زبيدة ثم توجها نحو الباب المعظم، ثمة صمت يلف الصديقين بالرغم من ضجيج السيارات ومرور الناس وأصوات الباعة، خاطب وائل صديقه:

- دعنا نذهب إلى دكان أبو العباس فأنا جائع، ما رأيك؟

- وأنا كذلك.

يقع محل الرجل قبالة نيابة دار الطلبة ، كان معروفًا لدى الكثيرين، وبشكل خاص من الطلبة القاطنين في النيابة الخاصة بهم، استقبلنا الرجل بود واضح:

– أهلاً أستاذ وائل، أهلاً أستاذ حمدي. تفضلا تفضلا.

لم يجدا أحد في محله سواه ، كان الرجل مشغولاً بتحضير عشائهما ، ارتفعت ضحكة وائل ثم انتبه حمدي فأغرق في الضحك، قال وائل متسائلاً:

– ما هذا اللقب الذي أضفته إلى اسمك. "السفاح"!!

أجابه الرجل ضاحكًا:

– ماذا أفعل ، الكل يأكلون ثم يذهبون وعندما أطالبهم بثمن طعامهم يقولون "سجل أبو العباس"، وأسجل. وتتراكم الديون عليهم حتى اضطررت لكتابة هذه القطعة "مشويات أبو العباس السفاح" الدين ممنوع والغضب مرفوع.

قال حمدي مبتسمًا:

– ألم تجد غير السفاح اسمًا تكتبه؟

– كي لا يأتي أحدهم يأكل ثم يمضي بدون أن يدفع ثمن الطعام، وها أنا كما ترى مرتاح.

رد حمدي:

– أبو العباس من فضلك الجوع يعذبنا، أسرع لنا بالطعام.

قال الرجل بحب:

- دقائق قليلة وسوف يكون العشاء جاهزًا.

قال حمدي يخاطب وائل:

- مازلت متعبًا.

- بالتأكيد ، ونسيت أن أقول لك إننا سننتقل إلى الصالحية في الأسبوع القادم، هذه رغبة الوالدة، تريد أن تكون قريبة من آمال وحفيدها "كرم".

- نسيت أن أقول لك إن المومس الشقراء تلح في مقابلتك.

خرز وائل صديقه قائلاً:

- لا تقل عنها "مومسًا". فردوس لا تسمى هذه التسمية ، هل كنت هناك؟.

- ليلة أمس قضيتها مع مديحة ، اشتقت إليها ، أحيانًا تعجب بهذه العلاقة التي تربط هاتين الفتاتين، فردوس ومديحة.

سرح وائل ببصره بعيدًا ثم قال:

- لديها رغبة عارمة في أن تعيش حياة طبيعية كبنات جنسها ، سأذهب إليها ، أشعر أنها فعلاً بحاجة إليّ، سأمر عليها غدًا قبل الظهر، لأنني مرتبط بموعد بعد الظهر.

همس حمدي:

- ها هو تموز يغادر ، وندخل شهرًا جديدًا يقربنا من موعد الدوام ، لا أستطيع أن أتصور أن الحياة تمضي على هذه

الوتيرة يا وائل، حياة تبدأ صباحًا بجرس وتنتهي بجرس، لا أحب التدريس ، لا أحبه أبدًا ، ملعون المعدل الذي أجبرني على الدخول إلى التربية الرياضية.

- بالمناسبة حمدي، لماذا لا تفكر بالسفر؟

- السفر! إلى أين يا عزيزي، ولمن أترك الوالدة، ألا ترى أن مأساتي شبيهة بمأساتك تمامًا، وأيضًا من أين لي القوة كي أترك أميرة ولا أراها أبدًا.

- اسمع يا رجل. أميرة حالة خاصة ، امرأة تزوجت ثم طلقت ، وإذا أرادت أن تتزوج سترتبط بالتأكيد بإنسان ثري ، إنها جميلة ، بل إنها باذخة الجمال ، وسيكون جوازها للوصول إلى ما تريد.

- قالت لي مرة بعد حديث سريع إنك تأتي في الوقت الضائع من حياتي، لو كنا التقينا قبل هذا الوقت ربما حدث أكثر من لقاء ، أما الآن لا. إنني أصوب بصري نحو ضفاف بعيدة بعيدة جدًا، تذكر أنني لا أفيدك.

- إذن ما هذا الحب الذي ينطوي قلبك عليه، إنها حالة ميتة كما تقول هي.

- وائل. لا أدري ، أحسب أنني أعرف هذه الفتاة منذ دهور طويلة ، قد أكون رأيتها في أحلامي ، قد أكون التقيت معها في زمن بعيد ، لا أعرف ، لا أدري شيئًا سوى أنني أريدها.

أحبها ، عندما أفكر أن حياتي ستخلو منها أو أنها ستبتعد يومًا عني تصيبني حالة موت ، تستأثر بكل حياتي ، أعتقد أنها لعنة ، لعنة ستبقى تلاحقني حتى نهاية حياتي ، بالأمس كنت مع مديحة ، قلت لو إنني أحب أميرة تحت وطأة الحرمان ، منها أنا أفرغ جعبتي منه ، أنا لا أشتهيها كامرأة ، أنا أحبها ، بل إنني لا أفكر أبدًا في الاقتراب بخيالي من هذه المناطق المحرمة ، وأعجب وأتساءل كيف إنها تزوجت؟ وأضحك من نفسي ومن تفكيري وأقول أليست هي امرأة كباقي النساء ، يا للعجب يا وائل ، لا أدري ماذا أفعل ، الحياة تأخذ مني أكثر مما تعطي ، والظرف سيء جدًا والرجل ذاهل عما يحيط به ، الحرب في الشمال ، ومطالبه بالكويت ، وقطع العلاقات مع بعض الدول ، والحزب وعلاقته بالسلطة ومع بقية الأحزاب والقوى الأخرى ، الساحة تغلي ، ولسوف يصيبنا الكثير فيما يأتي من الأيام.

– يبدو أننا جيل المأساة والتضحية بلا مقابل.

كانا قد أكملا عشاءهما ومضيا في طريقهما إلى مقهى ناصر ، قال حمدي:

– هل سنلتقي غدًا؟

– لا أدري دعها للظروف.

صاح حمدي:

- سلام.

مد وائل يده قائلاً:

- سلام.

●●●●

قالت والدته وهي تبدو متعبة:

- لقد قضيت اليوم أعد مع جيراننا الأغراض وتبقى الأثاث ، فتلك مهمتك ومن معك.
- قبل كل شيء أريدك أن ترتاحي تمامًا، ستكون أغراض البيت وأثاثه في مكانها المناسب في اليوم الذي تحددينه.

أجابت مقاطعة:

- الجمعة القادمة أول جمعة من الشهر الجديد.
- كما تشائين، سيكون كل شيء على ما يرام.
- هل تعشيت؟
- نعم. نعم.
- إذن سأذهب إلى فراشي لأنام.
- مع السلامة.

كالعادة يحيطني الفراغ تملؤني الكآبة، تطيح بقناعاتي الظنون، أسير كمعصوب العينين، لم أعد أرى شيئًا أمامي يستحق الاهتمام سوى حبك يا راجحة، وحتى هذا الحب أشك في إتمامه، تنفرط أيامي من بين يدي، أنتظر الحلم الذي سيتحول إلى حقيقة، متى تنطلق الأصوات فيتحول الليل نهارًا والأرض حدائق والناس حسرة، آه أيها الليل يا صديقي ومعذبي، آه أيتها العيون آن لك أن تستريحي وترقدي ودعيني أهدأ قليلاً وأحتضن وجهها الحبيب، ها هو صوتها يدعوني لكنه صوت بعيد بعيد.

صباحًا؛ أخذ طريقه إلى بيت عاصم، استقبله الرجل بابتسامة كبيرة، أبلغه أن الحزب سوف يقوم عاليًا جهوده، وأن الاختراق الذي أحدثه جاء في الوقت المناسب، والخطوة القادمة ستكون كالتالي:

١ – تطوير الموقع الذي تسلمته وهو الاستعلامات واستغلاله تمامًا من أجل منفعتنا.

٢ – سنرسل إليك بأعداد كبيرة من الشباب ومن مختلف القطاعات، طلبة. عمال. يسجلوا أسماءهم لديك كانتماء جديد.

٣ – تقسيم هذه الأعداد إلى خلايا والإشراف عليها، وسنجعلهم يشترون صحيفة التشكيل.

٤ – يعاد في المستقبل القريب انتخابات لاختيار "لجنة بغداد" والانطلاق إلى اختيار أعضاء اللجنة المركزية وهيئة تحرير الصحيفة.

٥ – تقوية العلاقات بالرجل الكبير، والحفاظ على مستوى الثقة التي ستبنيها معه طيلة فترة عملك.

٦ – وهذا أهم ما ينبغي أن تلتفوا إليه، وهو كنس العناصر الدخيلة مثل كريم وعامل السكك حمزة وآخر أعتقد أنه موظف واسمه محمد كاظم، وغيره من العناصر التي ليس لها علاقة بتنظيماتنا، نريده مجالاً صافيًا لن.

هذه الآن أهم النقاط، سنتناول الفطور معًا.

في هذه الآونة دخلت زوجته الفنانة نجوى وهي تدفع أمامها عربة الفطور، وضعتها بينهما ثم انسحبت مبتسمة، شربا الشاي ودخنا معًا ثم استأذن وائل ومى خارجًا، استأجر سيارة أجرة نقلته إلى شارع الرشيد، نزل قريبًا من مقهى البرلمان، كانت الساعة تشير إلى العاشرة، تحول إلى أحد المطاعم القريبة، طلب كبابًا وتكة وصمون، وضع العامل الطعام في كيس وقدمه إليه، أعطاه ثمن الطعام ثم مر بمحل لبيع الفاكهة، اشترى فاكهة ووضعها في كيس الطعام، توجه نحو الميدان، قبل أن يصل إلى الساحة انعطف إلى زقاق، نزل درجاته القليلة

وثمة قلق يملأ نفسه، ممتزج بمشاعر خوف، إنه لم يأت إلى هذا المكان منذ فترة غير قليلة، دلف إلى زقاق صغير يتفرع من الزقاق الرئيسي، وقف أمام باب مغلق، طرقه، أعاد الطرق ثانية، فتح الباب، هتفت مديحة:

- أهلاً أهلاً.

- أهلاً بكم. شكرًا.

قال هامسًا ثم دلف مسرعًا، أغلقت مديحة الباب ثم صاحت:

- فردوس يا فردوس، الأستاذ وائل.

فتحت باب غرفتها، وقفت كالمذهولة، توجه نحوها، كانت ما تزال رشيقة، تبدو أطول في ثوبها الذي ينسدل حتى قدميها فتحت له باب الغرفة، دخلها، مضت هي إلى الخارج، سمعها تحادث مديحة:

- أنا غير موجودة.

قالت مديحة ضاحكة:

- كوني مطمئنة، سأقوم بكل ما تريدين.

عادت إليه بعد أن أغلقت باب الغرفة، أخذت الطعام منه، وضعته على منضدة صغيرة، وقفت قبالته، كانت تأكله بعينيها، مدت يديها وضعتهما على كتفه، قربت وجهها منه لفحته أنفاسها الحارة، أربدت عيناها الواسعتان، قالت وهي تتعثر بكلماتها:

- شهران. شهران لم أرك فيهما.

أمسكت يديه وقبلتهما، سحت دموعها على راحتيه، رفع رأسها، بدا وجهها جميلاً ناصعًا، مد يده مسح دموعها قائلاً بلطف:

- فردوس. ها أنا ذا أمامك، ما إن سمعت من حمدي أنك تريدين رؤيتي حتى أسرعت إليك برغم كل مشاغلي.

كانت ما تزال صامتة، طوقت عنقه بيديها، تشمم رائحة عطرها، رفعت إليه شفتيها، قبلها في خدها وقال بصوت مخنوق:

- اهدئي فردوس. اهدئي.

كانت قد سحبته نحو الفراش، انطرحت فوقه، أخذت تقبله في وجهه، فتحت أزرار قميصه، وضعت رأسها على صدره، مدت أصابعها تعبث في مساحات جسده الذي بدأ يستسلم لها، كانت كالمجنونة لا تتوقف عند حد، أطاحت عواطفه بتردده، أمسك بها، جذبها إليه، أحست بقوة ساعديه، انطرحت إلى جانبه، في لحظات اعتلاها واستقبلته بكل ما فيها من شباب وصدق، ساد صمت عميق، أحس بها ترتجف، تتأوه تستعطفه، لكنه أفرغ كأسه حتى الثمالة، انطرح بجانبها، كانت قد استسلمت له تمامًا، نهل كل منهما من بئر الآخر حتى سقطا سويًا، قالت بعد لحظات:

- أنت حلمي العذب، وأنت موتي وحياتي.

ظل صامتًا، قال بصوت هامس:

- لماذا أرسلتِ في طلبي؟

قالت بسرعة:

- كي أعذبك بطريقتي، اشتقت إليك، شهران لا تتذكرني فيهما، هناك أمور كثيرة أردت رأيك بها، ألم تقل لي مرات عديدة ألا أفعل شيئًا بدون أن أعرف رأيك.

تساءل:

- ما الجديد؟

- سأعد الغذاء، نأكل ثم نتكلم، اليوم أنت لي.

جلسا يتناولان الطعام، قالت وهي تأكله بعينيها:

- لقد خطبت.

تأملها ثم ضحك وقال:

- من هذا الذي خطبك؟

- اسمه سعيد. سعيد الجماع، إنه صائغ ماهر يحول الفضة إلى أواني ودلال وأكواب وتحف كثيرة.

تساءل:

- كيف تعرفت عليه؟

- دخل البيت خجلاً يتعثر بخطواته، كنت أقف عند باب غرفتي، توجه إليّ، ظل يحدق في وجهي، فتحت له الباب، عندما دخل جلس عى طرف الفراش خجلاً مترددًا، سألته:

- ما بك يا رجل؟

رد باستحياء:

- لا شيء. لا شيء. منذ متى وأنت هنا؟

- لماذا، ماذا تريد مني؟

- لا أريد إلا الخير.

- هيا أكمل عملك، وامضِ في سبيلك.

رفع رأسه وقال:

- لا أستطيع. لا أستطيع.

- كم عمرك؟

- خمس وثلاثون سنة.

- تعال يا رجل. تعال.

أمسكت به وعلمته درسًا في أصول الحياة، قال بعد أن انتهى من عمله:

- اسمعي. وأقسم لك بكل ما يجعلك تصدقيني أنني أحببتك!

أجبته باستهانة:

- وماذا بعد؟

تردد قليلاً ثم قال:

- ليس لي أحد وأعمل صائغًا، وأكسب كثيرًا، أريدك زوجة بعد أن.

أطلقت ضحكة عالية لكنه عاد ليؤكد كلامه:

- أريدك زوجة لي ، لن أجد امرأة أفضل منك ، وأنا جاد في طلبي، سأخرج بك من هنا لأعقد عليك ولكن بشرط.

- ما هو؟

- أريدك أن تقصي شعرك دلالة على قص الماضي كله من حياتك، وسأكون لك خير زوج وصديق.

كان الرجل يتحدث بصدق تام ، طلبت منه مهلة عشرة أيام ، أعتقد أنه سيعود غدًا أو بعد غد، لا أستطيع أن أقطع برأي دون مشورتك.

- فردوس. هذه فرصة إذا كان الرجل جادًا فعلاً.

- أنا أيضًا قلت هذا في نفسي ، لقد علمتني الكثير في هذه الفترة من الزمن، سنتان ، كنت تأتيني كحبيب تعلمني وتفتح طرق الحياة أمامي، أنا أعرف أنني لن أصل إليك، لكنك تبقى حبيبي وصديقي، واليد التي أستند عليها. قلت هذه فرصة.

رد عليها:

- فرصة ممتازة وأنا على ثقة من أنك ستكونين سيدة رائعة ، وأمًا بارة بأولادها.

قالت:

- وخبر آخر، الذي اعتدى عليّ وبسببه تحولت إلى ما أنا عليه وصلني خبر أنه قتل في حرب الشمال.

قال وائل:

- وهذا خبر آخر جيد.

قالت فرحة يتقافز السرور مع كل حركة أو كلمة تنطقها:

- وأهم من كل هذا أنك معي، هذا كل ما أرجوه.

- أريد أن أطمئن عليك، وأراك في بيتك وزوجك يرعاك ويحنو عليك، ثم لابد أن تعلمي من أنني سأكون معك في أي ظرف ستجديني إلى جانبك، فردوس أنت عزيزة عليّ، عزيزة جدًا.

انتهيا من طعامهما، بدت عليهما الراحة واضحة، سرح ببصره وفكره بعيدًا، سامحيني أيتها الحبيبة فأنا ملوث فعلاً، لا أستحقك، لست جديرًا بحبك يا راجحة، ها هو جسدي صار مخزنًا للنفايات، ها هي روحي عالم ملوث بالأدران، أشعر أن شمس حياتي على وشك الغروب، وأن الدنيا لن تسامحني، إنه شعور بالسقوط والضعة، من أين الخروج إلى جمالك النقي والبهاء اللانهائي، من أين الخروج إلى مدن الضياء الخالدة، لو تتكلم قطرات الدم التي تجري في عروقي لقالت أكثر من هذا بكثير.

- ها أنا بجانبك.

تنبه لها، كنت تعبث بشعر رأسه، ها هي الجولة الأخيرة قادمة، رأى جسدها الأبيض ينتفض من سكونه ويرمي بجسده نخوة، تنبه إلى أسرار جسدها فكأنه يراها أول مرة، تميد الأرض بهما، كانت في أقصى عنفوان، أسكرته شهوتها، فتدفقت مشاعره كنهر فاضت مياهه على شاطئيه، اتحد الجسدان وغابا في لعبة الصراع الخالدة، منحته كل شبابها وذاتها، انطلقت معه حتى نهاية السعادة، لبسها ولبسته حتى تحولا إلى كيان واحد، ها هي تشهر عليه كل فتنتها كل فنونها حيث السعادة والراحة ثم الهدوء. سألته وهي تلهث:

- هل أنت سعيد؟

أغمض عينيه. لم يجبها، قبلته في جبينه، قال:

- السعادة حلم، إنها شيء لا يكاد المرء يلمسه حتى يفر منه بعيدًا.

- سأبقى أحبك إلى الأبد، إلى نهاية العمر.

- أشكرك. أشكرك.

- وأعلم أنك لست لي.

- لكني سأبقى وفيًا لك، وستجديني عند كل وقت تحتاجين فيه إليّ.

- لا أريد أكثر من ذلك. لا أحلم بأكثر من هذا.

- اسمعي. سأعطيك رقم هاتف خاص اتصلي بي كلما كان حضوري ضروري لك ، سأكون موجودًا وعلى مدى الأيام القادمة، اتصلي بي عصرًا أو مساءً، فإن أجابك أحد غيري أغلقي الهاتف ثم حاولي أن تتصلي بي ثانية وأخبريني عن سعيد الجماع، وعن الموعد الذي سيعينه للزواج بك ، وإذا رأيت أن أحضر زواجكما بأي صفة فأنا على استعداد.

- لا أطلب أكثر من هذا، إنها السعادة التي ما بعدها سعادة.

- الآن اسمحي لي أن أودعك، فلدي أعمال كثيرة، سأنتظر منك أخبارًا أرجو أن تكون جيدة. وداعًا.

تشبثت به، قبلته في وجهه وعلى يديه، ضمته إليها بقوة، قبلها في جبينها ، فتحت الباب ، مرق كالسهم ثم مضى في الزقاق مسرعًا وهي تشيعه بنظرات دامعة.

(٦)

وهو في طريقه إلى المقر؛ داهمته موجة كآبة عاتية عبثت بأعماقه وسرت في كيانه كأنها الرماد، حاول أن يطرد من عقله ما أحاطه من كآبة وقنوط ، لم يشعر من قبل بمثيل لهما ، سحائب حزن، تعبر فضاءات روحه المتعبة، وتحيله إلى أنقاض ، هذه المشاعر بدأت تؤذيه وتأخذ من وقته وحيويته الشيء الكثير ، إنها تكبر في جسده وتستوطنه كالمرض القديم، ها هو يسقط ضعيفًا متهاويًا في بحيرة الموت الروحي كما لو أنه كوكب يسقط من عل ، حاول أن يستنهض في أعماقه قيم الشجاعة والاندفاع، لكنه لم يجد لهما إلا آثارًا تبدو كالسراب أمام ناظريه تساءل أي زمن هذا الذي أعيشه أي إحباط أعاني منه ، أشعر أنني معلق في الهواء ، كيف لي وهذه حالي ، أن أكمل الطريق وهو بلا شك مليء بالألغام وبالمنعطفات الحادة وأنا أتحول إلى مزق وشظايا ، إن عالمًا من الحزن يقطن هناك في زوايا عقلي، أو أيتها الروح التي أذلها الانتظار متى سيأتيك الفرح الموعود ، وأنت أيها العقل الذي تحولت إلى قبر وشاهده؛ أريد استثناء لحياتي كلها ، سلمًا جديدًا أرتقيه لأصل إلى عوالم الضياء والسحر والوداعة.

– مرحبًا أستاذ وائل!

أيقظه الصوت الخشن من غيبوبته، رد عليه بصوت بدا التعب واضحًا بين تضاعيفه:

- أهلا بالفارس القديم يبدو أنني سألتقيك دائمًا أمام هذا النصب العملاق، الأستاذ يوسف عبد الحسين قل لي كيف الحال أولاً ، وماذا يجري وإلى أين تتوجه السفينة، "تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا".

سأله وقد استغرقته الحالة:

- هل هناك مزيد من الدموع في الآتي من الأيام؟

أجابه الرجل وعيناه تحدقان في فراغ كبير:

- وقال لي النعيم كله لا يعرفني والعذاب كله لا يعرفني وقال لي معناك أقوى من السماء والأرض.

رد وائل بحزن واضح:

- أستاذ يوسف، ما الذي ذكرك بالنفري إنني أفهمك، فلست الوحيد الذي تتعذب، لقد فقدناك منذ أن تقاعدت.

انتبه الرجل إليه، رفع سبابته وهو يقول:

- وائل، أنت عزيز عليّ حقًا، أوصيك بنفسك، كن حذرًا لا خائفًا، والآن امضِ إلى عذابك الجديد!

ثم رفع يده مودعًا.

- السلام عليك يا وائل.

ابتسم وائل بدفء ورد بصوت عذب:

- عليك السلام أيها الإنسان المعذب.

دخل غرفة الاستعلامات، فوجئ بسعد حكمت جالسًا وحيدًا يدخن سيجارته، هتف بحرارة:

- أهلاً سعد، إنها مصادفة حلوة، كنت بحاجة لرؤيتك.

- هالو وائل. خرجت من الدائرة طفت ببعض الشوارع، لم أذهب إلى غرفتي، أشعر بالمرارة، توجهت إلى هنا، وجدت المقر مفتوحًا والحارس مهذب ينظف الآن الغرف في الطابق الثاني.

قام واقفًا يهم بالخروج، سأله وائل:

- إلى أين؟

- لم أتناول طعامًا منذ الصباح، سأعود سريعًا.

سأله وائل بحميمية:

- سعد. لدي ما يكفي هل تحتاج إلى شيء؟

غض سعد بصره وهو يخطو نحو الباب قائلاً:

- شكرًا وائل، إذا احتجت فلست بعيدًا عني.

توجه إلى داخل المقر ثم غرفة الطباعة، رأى العامل أنور مشغولاً بتصليح بعض أجزاء ماكينة الطباعة، حياه قائلاً:

- سأخبر الأستاذ أن هذه الماكينة لم تعد صالحة للطباعة، لقد أتعبتني كثيرًا ، والأفضل أن تطبع الصحيفة في مطبعة خارجية.

رد وائل:

- سأخبر "أبو سليمان" بالأمر.

عاد ثانية إلى الجلوس وراء المكتب، طاب له أن يتصل بشقيقته آمال، ردت من الجانب الآخر:

- هالو آمال. كيف الحال؟

ضحك من أعماقه:

- لا تعتبي عليّ أنا مقصر بحقكم جميعًا على الدوام.

اكتسى وجهه سمات الجد وبقى صامتًا، ثم انطلق يتحدث:

- لا أستطيع الاتصال بها في الدائرة دائمًا، سأرتب لقاء معها من خلالك، كيف حال ماجد وكرم؟

- نعم نعم. سوف تستقر في البيت خلال هذا الأسبوع، كل شيء جاهز. مع السلامة.

ماذا تعمل أيها الرجل الذي تتناهبك الطرق والظنون، إنك تتدحرج إلى هاوية عميقة، ليس هناك سوى راجحة، إن خسرتها فستخرج من الحياة عاريًا تمامًا لأنك لم تحقق ما يستحق الذكر حتى اللحظة، إلى متى تبقى تحس الفراغ يلتهم لحظاتك؟ إلى متى يبقى الظلام يملأ أجزاء واسعة من أعماقك،

أين أحلامك الحلوة التي كانت تراود خيالك على الدوام؟ أين ذلك الوهج الذي يسري مع الدماء في العروق، فيحيل الحياة إلى مهرجان ألوان وسعادة؟ لماذا تتغير وجوه الناس أمام ناظري لتتحول إلى ما يشبه قطع الحجارة؟ متى ترحل الهموم من دنياك ودنيا الآخرين؟ متى تكون الأرض مسرحًا للحب والسلام؟ إلى مى يبقى الحلم مستحيلاً؟!

عاد سعد حكمت ثانية ومعه شاي، سلم عليه ثم جلس هادئًا بجانبه، تساءل وائل أين يا ترى التقيت أو رأيت هذا الوجه؟ ارتفع صوت سعد:

- الرفيق ناجي تركي، معم ويدرس الحقوق مساء.
- أهلاً رفيق ناجي كنت أتساءل في سري أين التقيتك قبل هذا الوقت؟

رد ناجي مبتسمًا:

- المواقف كثيرة، والوجوه الطيبة أكثر.

في هذا الآن؛ دخل غرفة الاستعلامات، شاب يبدو رياضيًا، من هيئة جسده ومشيته، سلَّم مبتسمًا، صافح ناجي وسعد ثم توجه نحو وائل:

- هالو رفيق.

استقبله وائل مبتسمًا ومرحبًا.

- أهلاً أهلاً. تفضل.

قال سعد:

- الرفيق صباح مهدي.

- تشرفنا، وأنا وائل عبد اللطيف محمود.

- فرصة سعيدة، أهلاً وسهلاً.

ارتفع صوت حاد في مدخل الباب ، ثم دخل كريم غرفة الاستعلامات مسرعًا وهو يقول:

- سأعلمك درسًا لن تنساه يا هذا.

توجه نحو وائل يحاول الاشتباك معه ، إلا أن سعد وناجي وصباح أمسكوا به وأجلسوه على أحد الكراسي. ارتفع صوت عبد الحميد متسائلاً وهو يطلق شحنة الهواء من أنفه وعيناه لا تستقران في مكانيهما:

- ماذا يجرى؟ ما هذا الصوت، من كان يتشاجر؟

أجاب سعد:

- كريم حاول الاعتداء على الرفيق وائل.

وجه كلامه إلى كريم وهو يتقدم منه:

- سأسلمك الآن إلى الشرطة، أعطني الهاتف من فضلك.

قال وائل:

- لا داعي لذلك رفيق عبد الحميد، هذا إنسان جاهل.

رد عبد الحميد زاعقًا:

- بل قل إنه لا يستحق الاحترام ، اسمع كريم هذه أخر مرة تدخل فيها المقر ، أنت مطرود وإذا رأيتك ثانية سأسلمك إلى الشرطة، هيا. اخرج من هنا.

قام كريم وكلمات عبد الحميد تلاحقه:

- مكانك الحقيقي في جراجات السيارات ومقاهي السوقية.

ثم قال موجهًا الكلام لوائل:

- أنا آسف رفيق وائل ، هذا عنصر كان لابد من بتره منذ فترة والآن اسمحوا لي.

خرج نافثًا هواء أنفه بصوت مسموع، سحب صباح مهدي وهو يدندن بأغنية "أهواك" ووجهه يقطر رقة وخرجا.

عندما عادوا ثانية إلى المقر قرر وائل أن يتحدث إلى مدير التحرير عبد الحميد صمد وكذلك مع أبو سليمان عن أحوال طباعة الصحيفة في مطبعة خارج المقر ، وعندما طرح الموضوع أمام عبد الحميد أيده قائلاً بعد شحنة الهواء التي يطلقها من أنفه كعادته دائمًا:

- هذا أمر غاية في الأهمية ، سنحقق أهدافًا عديدة من خلاله ، أولاً التخلص من ضوضاء وإزعاج الماكينة الموجودة في المقر ، وثانيًا ستكون طباعتها أفضل ، وثالثًا سنبيع هذه

الماكينة للاستفادة منها في أمور تهم المقر، ورابعًا أرى أنها خطوة إلى الأمام وسأتحدث مع أبو سليمان في هذا الشأن.

قال وائل:

- بشأن الانتماءات الجديدة، هل أحيلها إليك أم أتولى أمرها من خلال عملي في الاستعلامات؟

نفث عبد الحميد دخان سيجارته وابتسم قائلاً:

- أنت تخلصني من مشاكل كنت أنوء تحت ثقلها.

قال وائل في سره "أينوء الرجل تحت ثقلها" إنه كلام كبير يا هذا ، سمعه يقول:

- أرجو أن تتولاها أنت بنفسك، فثقتي بك كبيرة، وأنت أهل لهذه المهمة أو غيرها من المهام.
- يبقى أمر أخير رفيق عبد الحميد؛ أنا بحاجة إلى يومين أو ثلاثة لأننا سننقل سكننا إلى الصالحية، وسأجعل الرفيق سعد حكمت يقوم بأعمالي في الاستعلامات.
- لا بأس، تصرف بما يريحك، الرفيق سعد حكمت إنسان رائع وضروري زجه في بعض المهمات والأعمال.
- سأفعل ذلك كلما رأيت فرصة مناسبة، شكرًا لك أيها الرفيق عبد الحميد.
- شكرًا لك. خذ راحتك منذ الآن.

(٧)

ها هي الأيام تتوالى دون مبالاة بأحد، وزمن بائس يمضي قدمًا في سيره دون كلل أو ملل، لا يعرف التوقف أو الراحة، إنه زمن ملعون غادر يسرق الأحلام والخطوات والحياة ذاتها، ها هو المقر يمتلئ بالقادمين، طلاب كليات، مدرسون ومعلمون، عمال، نظم وائل استماراتهم الخاصة بكل واحد منهم، كان في كل الأمور التي تستجد من اتصال وثيق بالرجل الكبير "أبو سليمان"، أغرق نفسه بالعمل، قسمت الأعداد إلى خلايا، كل خلية تتكون من ثلاثة إلى خمسة أشخاص، وبدأت الاجتماعات في الغرف الفارغة من الطابق الثاني للمقر وقد أبلغهم أن باستطاعتهم أن ينتخبوا مسؤولاً لكل خلية، باعتبار أن العمل أصبح علنيًا، بيعت المطبعة القديمة، وتم طبع صحيفة المبدأ في إحدى مطابع الصحف في منطقة السنك، وصار من القادمين من هو أقرب إلى قلب وائل ومشاعره، هناك علاقات حقيقية بدأت تنمو لتصبح صداقة، تم انتخاب لجنة بغداد من خلال انتخابات مباشرة في المقر أشرف عليها أبو سليمان وعبد الحميد صمد، وضمت لجنة بغداد كل الأسماء الجيدة التي وفدت إلى المقر في بداية العمل المطلوب، كان هناك في اللجنة وائل، سعد حكمت، ناجي تركي، صلاح المدفعي، نعمة محسن، صباح مهدي، أحمد

سردار ، هادي عزيز وشامل خضر ، في هذه الآونة توثقت علاقة وائل بـــ "أبو سليمان" ، بحيث صار الرجل يطلب منه مرافقته إلى أي مكان يدعى إليه، فكان هناك دعوات كثيرة إلى سفارات وممثليات وبيوت كبيرة ، اتسعت دائرة معارفه من الرجال والنساء.

لم يشغل وائل عن أداء واجبه تجاه فردوس إغراقه في العمل، فلقد اتصلت به وحضر مناسبة عقدها مع سعيد الصائغ كزوج ارتضته، وجدها فرحة، تعرف إلى الرجل، هنأ كل منهما، قدم نفسه قريبًا بعيدًا لها، قدم لها هدية عبارة عن مظروف فيه مبلغ من المال، غمرته سعادة واثقة وهي تنحني أمام زوجها لتقبل يده، تمنى لهما السعادة ثم صافحهما ومضى، هرب من عينيها اللتين فاضتا بالدمع، كما أنه تخلص من شكوى والدته، فلقد استقرت في بيتها الجديد والقريب من ابنتها ، في هذه الآونة استدعى إلى لقاء سريع بعاصم الحلبي، استقبله الرجل بوجه متجهم، سأله:

- ما الخبر؟

- هناك أمر بتسليم كامل التنظيم في المقر لصلاح المدفعي!

- ما هي الأسباب؟ هل هناك ما يستدعي هذا الإجراء؟ لقد بذلت الكثير من الجهد والوقت لتصل الأمور إلى ما وصلت إليه، وأنت شاهد على ما أقول.

- لا شك في هذا أبدًا ، كنت بطلاً حقيقيًا ، الآن المقر بيدنا والصحيفة كذلك، وها نحن نطبع منها ما نريد بعد أن أغلقت صحيفتنا. إنها أوامر الحزب وعلينا التنفيذ ، وبالمناسبة ستكون علاقتك التنظيمية القادمة بأحد الرفاق البعيدين عن عملكم، ولكنه على اطلاع جيد على مجرياته، سيتقدم إليك في الوقت المناسب ، سأكون أنا واسطة التعارف بينكما ، أرجو حضورك في مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم، بعد أن تكون قد أكملت عملك مع صلاح، وأرجو التعاون معه على أفضل وجه.

جلس هادئًا في مكانه من غرفة الاستعلامات ، سمع الجميع صوت سيارة السكرتير العام تقف أمام باب المقر، وقف الرجل مبتسمًا أمام باب الاستعلامات ثم أشار إلى وائل الذي قام بسرعة نحوه، توجها داخل المقر، وقفا أمام النافورة:

- هذه الليلة ستكون معي ، هناك دعوة من ممثلية ألمانيا الديمقراطية ، خاصة بحزبنا ، إن هذه الدعوة تشير إلى أن حزبنا بدأ يشق طريقه بهدوء وبخطوات مدروسة ، وأيضًا سنلتقي بالزعيم، إذ علمت أنه سيحضر الحفل أيضًا.

استأذن أبو سليمان كي يلتقي بعبد الحميد صمد، بقى واقفًا أمام النافورة ، مضى خياله نحوها ، امتدت مشاعره الملتهبة نحو خيالها، رآها تغض الطرف كعادتها كلما أمعن النظر في عينيها،

آه يا راجحة كم مضى من الزمن على أخر لقاء تم بيننا ، أي ظلم أنزلته بك وبنفسي ، متى تواتيني الحياة لأجعلك عالمي الأثير ، لأودع فيه كل أسراري ، أي زمن هذا الذي يمنعني عنك ، يالخوفي ، ثمة مشاعر غير سارة ولا مريحة تملأ العقل والروح ، هل تبغين حلمًا يداعب الخيال في وقت قد لا يبقى منك سوى الذكريات.

تنبه على صوت صلاح المدفعي ينبهه إلى أن أبو سليمان قد سبقه إلى السيارة ، وتمنى له بضحكته المضغوطة ليلة رائعة ، يدفئ فيها الويسكي برد ليالي كانون الأول.

توجه بسرعة نحو باب المقر حيث تقف السيارة ، تجاهل صلاح تمامًا ، جلس بجانب الرجل الكبير في الحوض الخلفي ، انطلقت السيارة بهما نحو منطقة المسبح ، قال الرجل مداعبًا:

- رأيتك وأنت تقف أمام النافورة في رحلة عميقة ، ترى أهي مع الذات أم مع العاطفة؟

فاجأه السؤال فضحك في ود ثم قال:

- مع الاثنين.

- المراجعة مطلوبة دائمًا ، واقعنا السياسي يتردى يومًا بعد آخر ، القوى المنادئة أعلنت عن تجمع سياسي خطير ، لقد بدأت بخطواتها الأولى ، وها هو الإضراب في الجامعة وفي الشارع يبدو كما لو أنه بداية النهاية.

قال وائل:

- هناك ما يسر النفس فعلاً، فعلى مستوى العمل الذي تقوم به نلاحظ الصحيفة وقد بدأت أعداد طبعها تتصاعد إلى اثني عشر ألف، وقد نطبع في الأسابيع القليلة القادمة أكثر من هذا الرقم، المقالات التي تكتب فيها تحاول أن تنبه السلطة إلى المخاطر الكبيرة التي تحيط بها وبالثورة عمومًا، الخطوة المهمة والكبيرة أننا أنجزنا عملية انتخاب أعضاء المركز، بحضور المندوبين من أربعة ألوية، وسنقوم بسفرات قادمة لفتح فروع أخرى في بقية الألوية، لقد كان الحضور في انتخابات المركز رائقًا، هناك بعض السلبيات التي رافقت العمل، هذا وارد، من لا يعمل لا يخطئ.

ضحك الرجل الكبير، كان يبدو سعيدًا، قال بنبرة متفائلة "المهم من يضحك أخيرًا"!

وصلت سيارتهما إلى المكان، ترجلا منها، دخلا إلى البهو الكبير، استقبلهما ممثل ألمانيا الديمقراطية وزوجته، صافحهما بحرارة، ثم رافقهما إلى حيث جلسا، كانت القاعة تشع بالأنوار، وكان الجالسون يتبادلون الأحاديث، الندُّل يحملون صواني صفت عليه أقداح الشراب من مختلف الأنواع، نساء ورجال يمسكون بأقداح الشراب، رأى الرجل الكبير يقوم ويتوجه نحو رجل اتجه إليه مبتسمًا، همس في أذن وائل "تستقبل الآن السفير

السوفيتي"، قام وائل وقف بجانبه، صافحهما السفير بحرارة ثم بدأ حديثًا باللغة الإنجليزية بين أبو سليمان والسفير ، تبادلا الرأي منه حول الحرب في الشمال ، والمشاكل التي تواجه الفراق في سعيه لنيل حقوقه كاملة من شركات النفط ثم وقف الجميع ، واتجهت أبصارهم نحو الباب الرئيسي ، قال أبو سليمان:

– إنه الزعيم. لقد وصل!

في هذه الآونة ، دخل إلى القاعة جمعيته ممثل ألمانيا الديمقراطية ، كان بملابسه العسكرية سريع الخطوات يبتسم للجميع ويرفع يده بالتحية لهم ، جلس في مكان متقدم من القاعة، وبجانبه المضيف قدم له ولمرافقيه عصير البرتقال، ثم قام ليتجول بين المدعوين، قام أبو سليمان ومعه وائل واتجها إليه ، صافحهما ببرود ، قال أبو سليمان بعض الكلمات التي تقتضيها المناسبة، ثم طلب اللقاء به ، وقد حاول سابقًا لكنه فشل في الحصول على موعد ، المقر بحاجة إلى مال ، والمصروفات التي كان قد عينها له لم تعد تصل للمقر منذ شهور.

حدق وائل بالوجه المستطيل المائل إلى البياض والمشرب بحمرة خفيفة ، وإلى العينين الواسعتين وإلى كلماته السريعة المتدفقة وهو يخاطب الرجل الكبير:

- لدي معلومات أن جماعة اتحاد الشعب قد احتلوا المقر وأن الصحيفة التي تطبعها بيعها يغطي مصاريفكم.
- سيادة الزعيم نحن بحاجة فعلاً إلى مبلغ شهري من المال ندعم به وضعنا، فهناك إيجارات المقرات في بغداد والألوية، هناك مصاريف وأجور المطبعة والعاملين فيها...

قاطعه:

- اعتمدوا على أنفسكم أو أغلقوا أبوابكم كما فعل الجادرجي وغيره ممن أجزنا أحزابهم.
- أياديكم سيادة الزعيم تبقى ناصعة وفضلها لا ينسى.

كان قد استدار في هذه الآونة ليسلم على أحد السفراء المدعوين أحس وائل بخيبة أمل الرجل الكبير، وكذلك فإنه امتلأ بشعور من الإحباط، لا يعرف لماذا لم تسره رؤية الزعيم ولا حديثه، فكأنه اتهام واضح له بالتواطؤ مع جماعة اتحاد الشعب، سمع أبو سليمان يقول:

- لم يترك لي الفرصة لأقول له، إن هذا الحزب هو حزبهم، وإنني سأدعوهم إلى توحيد الجهود معنا، لنستأنف عملنا جميعًا كما ينبغي للمناضلين أن يكونوا، سأبعث بدعوة حوار إلى رفاقنا في اتحاد الشعب، للبدء في حوار أصيل وملتزم، وإذا كان همهم الإجازة فليأتوا ليتسلموها.

ثم قرع كأسه الثانية، قال وائل:

- لم أرتح لرؤية الرجل.
- قدرنا أننا نتعامل مع برجوازي يتصور أنه يخلق العالم من جديد، ألا ليت!

ابتسم وائل:

- هل هاجمك الحنين إلى أيام الشباب؟
- إني أرى بعضًا من شبابي فيك يا وائل، بل كنت أتمنى أن يكون لي ابن بمثل شبابك وعمرك.
- اعتبر نفسي تلميذا في مدرستك، وسأكون نعم الابن لك.

ودع الجميع الزعيم، ثم أمضوا وقتًا تحادث فيه أبو سليمان مع الشخصيات من وزراء وسفراء، واستأذن من مضيفه، ثم خرجا ليجدا السائق، وقد أخذته إغفاءة خلف مقود السيارة، أيقظه وائل بنقرات خفيفة على زجاج الباب الجانبي، فتح عينيه ثم سارع بالنزول ليفتح بابي السيارة الجانبيين ولينطلق بهما إلى بيت سليمان في منطقة العلوية، ومن هناك إلى الصالحية، حيث يوصل وائل إلى بيته، فتح الباب بهدوء، حرصًا على راحة الوالدة إلا أنه وهو يحاول أن يصعد السلم إلى غرفته، سمعها تسعل وكأنها تعبة، رجع إليها، دخل غرفتها وجدها جالسة على فراشها، قالت بألم قبل أن تترك له فرصة للسلام:

- أهذه هي الحياة التي اخترتها لنفسك؟ حياة التشرد منذ الصباح وحتى ساعة متأخرة من الليل، إذا كانت حقوقي

عليك قد هانت إلى هذا الحد فعلى الأقل انتبه لحقوق الناس الآخرين ، أنت تقتل نفسك وشبابك وتفرط بعمرك ، هل أبقى عالة على الآخرين؟ لا أعرف كيف أشكر أختك وزوجها على رعايتهم لي، وحسبي الله...

ثم لم تستطع أن تكمل حديثها، تهدج صوتها وانخرطت في بكاء مرير ، كانت تتشنج بحرقة وألم، جلس إلى جانبها ، أخذ يدها بين كفيه، حاول أن يقبلها لكنها سحبت يدها وقالت بحزم:

- لست بحاجة إلى عواطفك المزيفة، حتى الوظيفة تركتها من أجلك ، لقد أفنيت عمري من أجلك ، لو كنت حسنة الحظ لأطال الله في عمر والدك ، ولكن تلك كانت مشيئته مع الأسف، إنني أحصد الألم والفراغ.

- اعذريني فأنا أكثر منك.

قالها بصوت متهدج ثم أكمل:

- كنت أتصور أن قربك من آمال سيملأ عليك بعض الفراغ الذي تعانيه، يومي يبدأ بالذهاب صباحًا إلى المدرسة ثم من هناك ألتقي بأصدقائي...

قاطعته:

- تلتقي بأصدقائك يوميًا، وعلى مدار السنة؟! قل لي كم الساعة الآن؟ كيف تستطيع أن تدرس طلابك وأنت متعب ومشوش ولا تنام من الليل إلا أقله؟!

قبلها في رأسها إلا أنها قالت بغضب:

- ابتعد عني، واذهب غدًا إلى أختك لأنها تريد رؤيتك على عجل.

- لماذا؟

- لا أعرف، ربما هناك بعض الأسرار التي لا تريد أن تخبرني بها.

- ثقي أيتها العزيزة سأكون كما تريدين قريبًا منك على الدوام، وأريدك أن ترتاحي...

قاطعته:

- سمعت هذا الكلام كثيرًا من قبل.

أمسك بيدها وقبلها ثم اعتذر وقام متوجهًا إلى غرفته.

جافاه النوم، حاول أن يقرأ لكنه وجد أنه في وضع لا يتيح له التركيز على شيء، مر أمامه شريط أحداث الليلة، وتلك السويعات التي قضاها بمعية الرجل الكبير، ثم قارن بين وضعه قبل ساعات قليلة وبين حاله الآن، الوالدة تقلب عليه مشاعر الفرح التي ملأت نفسه إلى أحزان، تسافر في أجواء روحه المتعبة والملتاعة لرؤية راجحة، وماذا تقولين؟ وبماذا تفكرين، هل نسيني وائل؟ هل أهملني ولم يعد يفكر بي؟ أين أحلامي التي اتفقنا على تحقيقها، متى يتحول الخيال إلى واقع؟ ماذا أفعل؟

إنني موزع لا أدري تنفرط ساعات يومي، ابتداء من ساعات الصباح الأول وحتى الساعات الأخيرة من الليل حيث يمضي في العمل الشاق، طبع الصحيفة، الإشراف عليها، تصحيح كلمات المقالات، ترى ما الذي أفعله كي أوفق بين تناقضات حياتي؟ لابد من التغيير أو اشتياقه على الأقل. أغلق مصباح النور ثم مضى في سبات عميق.

تناول إفطاره على عجل، سألته الوالدة:

- هل ستمر على أختك؟

- نعم وفورًا.

طرق باب بيت شقيقته القريب من دارهم، فتح له زوجها ماجد الباب ودلف مسرعًا وهو يتمتم بتحية الصباح، صاحت آمال فرحة:

- وائل حبيبي حتى وأنت قريب مني لا أستطيع رؤيتك، أين أنت أيها الجوال الذي لا يمل السفر؟

وقف مبهوتًا لا يدري ماذا يقول أو يفعل، صعقته المفاجأة، ما الذي جاء بك أيتها المعبودة في هذا الوقت؟ لابد أن هناك ما يبرر هذه الزيارة غير الطبيعية، يا لي من شقي، إنني أسرق أيام عمرك وأعذبك. رسم على شفتيه الابتسامة ثم توجه يجلس إلى جانبها.

- صباح الخير، أجمل صباح وأحلى مفاجأة.

قطع عليهما الحوار صوت ماجد وهو يودعهما ويقول:

- اسمحا لي أن أودعكما، وائل. أريد أن أراك في أقرب فرصة، إنها دعوة عمل وليست مجاملة.

وقف أمامه بنجماته اللامعة وطوله الفارع.

- لا تنس أيها العزيز ، وحسنًا تفعل لو أننا نراك مساء هذا اليوم.

قال وائل:

- سأحاول يا ماجد...

قاطعه:

- لا. لا تحاول، أريد رؤيتك لأمر هام، وهام جدًا.

رد عليه بوجوم:

- سنلتقي ليلاً.

- مع السلامة.

التفت إلى راجحة تشمم رائحة عطرها، شعر أن العالم يولد من جديد وأن الحياة تتدفق ثانية في دمائه وعروقه وكل خلايا جسده هادرة.

استأذنت ثم تركتهما معًا، خيم صمت ثقيل عليهما، صمت معذب ومرهق غلفهما بغلالة رقيقة لكنها ثقيلة الوطأة على نفسيهما، مد يده أخذ يدها تساءل بصوت، أحست بارتجاف نبراته:

- راجحة إنني أموت ، إنها مفاجأة لم تخطر ببالي ، كنت أذوب شوقًا إليك، لكن رؤيتك بهذا الشكل وفي هذا الوقت لم تخطر لي ببال، ما الأمر أيتها الحبيبة؟

سحبت يدها ضمتها مع الثانية إلى حجرها ، قالت وعيناها تنظران إلى الجهة الأخرى:

- وائل.اضطررت إلى المجيء إلى هنا وفي هذا الوقت المبكر ، لقد فاجأت آمال الصديقة والإنسانة استقبلتني كما لو كنت فعلاً شقيقتها ، الأمر خطير بالنسبة لي ، لا أريد أن أعيد ما قالته آمال أمامك ثانية، لا تشعرني بأني أتسول عواطفك.

قاطعها:

- رؤيتك زادي في هذه الحياة، اعلم راجحة أنه لا عذر لي، لقد قطعنا كل المسافات ومضينا تحب في طريق، ها نحن نشرف على نهايته ، أعرف إنك لن تعذرني وهذا حقك ، بل إني لا أعذر نفسي ، أطالبك باسم المشاعر التي تملأ قلبينا منذ سنوات الصبا الأول أن تمنحيني فرصة أخيرة، أنا في وضع لا أحسد عليه، اعلم أنني أتجاوز في طلباتي، لكنني أثق بقوة حبيبتي سأبقى أسيرك حتى نهاية العمر ولن يبعدني عنك أي طارئ ، إنني أحيا من خلالك ، إنني أنزف دمي كلما شعرت إنني السبب في آلامك كذلك أعرف أنني أحملك فوق طاقتك ، امنحيني فرصة أخرى ، أنا بحاجة لها ، اعلم أن الظروف

تسير في غير الاتجاه الذي نتمناه ، لك مني عهد الحب والوفاء الذي قطعناها على نفسينا من أنني سأعوضك عن كل لحظة ألم تعانيها بسببي وكل لحظة هربت من بين أيدينا ، ثقتي بك كبيرة وستبقى كذلك وسأبقى مدينًا لك بكل العمر الذي سأضعه بين يديك، وفي وقت أرجو ألا يكون طويلاً.

تنبه كأنه كان يكلم خيالاً، أفزعه نشيجها ، وضعت وجهها بين يديها وراحت تنهنه دموعًا ازدحمت في أعماق روحها وعينيها ، شعر بصغره وبأنه بدأ يتلاشى في تضاعيف الموقف الذي أحاط بهما ، أمسك بيديها وسحبها إليه ، رفع وجهه نحوه ، مسح دموعها ، طبع قبلة حارة على شفتيها ثم سمع نقرات أصابع آمال على الباب ، وقفت أمامهما مذهولة ، أخذتها من يدها ، وضعت رأسها على صدرها ، سحبتها إلى داخل البيت كي تغسل وجهها وتعيد زينتها ، بقي وحيدًا مع سيجارته ودخانها الذي تصاعد وملأ جو الغرفة ، بعد قليل رجعت إلى مجلسها ، خاطبته بهدوء:

- كنت أعرف أنك ستجيبني بمثل هذا الكلام ، لا أعرف من ألوم؛ نفسي أم ألومك أم ألقي بحزني على القدر والحياة التي أرادت لي أن أوغل في طريق الأحزان ، لقد بدأت إرادتي تهتز أمام العائلة، إنني أؤدي ما عليّ ولا أعرف ما ينتظرني ، لقد استبحت أيامي ووهج روحي، لم أعد أراك إلا مصادفة

، كأنني لم أكن كما تقول كل حياتك وشمسك التي ترى طريقك من خلالها، ها أنا أمامك روح بلا كينونة، وشمس يخبو نورها يومًا بعد آخر، أشعر أنني أذبح بلا رحمة فوق صليب مشاعري ها هو الحب يمضي، والأمل تحول إلى سحابة، مضت في طريقها نحو النهاية، كل ما حولي يفضي إلى موت، إنني أموت يا وائل، متى تدرك ما أعانيه، سأدخل معركة لا أعرف هذه المرة ما ينتظرني فيها، يا له من زمن رديء يترك ضحاياه محطمين دون رحمة، يبدو أنه الجنون ولا شيء غير ذلك.

استأذنا ثم خرجا، أوصلها إلى باب الدائرة في شارع الرشيد، ودعته ومضت مسرعة، أما هو فقد وصل مدرسته متأخرًا، قال وقد هفت روحه لحمدي مصطفى "سأراك اليوم، لقد اشتقت إليك، كأن زمنًا طويلاً قد مر دون أن نلتقي".

(٨)

استقبله ناصر بوده المعهود وابتسامته الحلوة، رأى سمات قلق تطفو على أديم وجهه الأسمر، قدم له الشاي وسأله وائل عن حمدي، أجابه:

- إنه على وشك المجيء.

لم يكمل شرب شايه إلا وسمع صوت حمدي صارخًا:

- وائل أيها العزيز أين أنت؟

احتضنه وائل بقوة، جلسا متقابلين، حدق حمدي في وائل، تساءل:

- أراهن أنك تعيش مشكلة قل لي هل هناك ما يخيف، إن الاضطربات بدأت تنتقل إلى الثانويات، قبل قليل كنت في كلية التربية في زيارة لأحد الأصدقاء، وجدت أن الكلية قد تحولت إلى ساحة معركة، الكل في حالة من التهيؤ لا مثيل لها، لقد امتدت الصدامات إلى بقية الكليات والمعاهد الأمر خطير، وخطير جدًا.

- يبدو أن شركات النفط لا تضيع وقتها سدى، إنها تعمل بكل طاقتها لتفرقة الصفوف وإشعال نار الفتنة بين أبناء الشعب الواحد، ولا تنس الحرب المستعرة في الشمال، أيضًا فإن

الوضع هنا يبدو هشًا ، لا أدري يا حمدي لدي إحساس أننا على أعتاب مرحلة جديدة تمامًا ، لا تعرف مدياتها بالضغط الآن ، إنها القارعة يا حمدي ، بل إنني أشم رائحة دماء في الأجواء ، رائحة تهب علينا من كل الجهات ، أتذكر الآن بيت الشعر الذي قاله يوسف عبد الحسين في لقاء سابق.

أرى أفقًا بنجح الدماء　　　　تنور واختفت الأنجم

- إذن ما العمل؟
- لا أعلم يا حمدي ، يقولون إنهم في حالة استعداد مع أنني في شك من أمري ، لم أعد أصدق ما يقال.
- ولا أنا يا وائل ، أرى الكل يتربص بالكل والدولة غافلة عما يجري بالقرب منها.
- حمدي نحن ضحايا ، لم يؤخذ رأينا في أية مسألة أو عمل ، نتساءل عما حولنا ، نسمع كلامًا غريبًا ، كلامًا ليس له علاقة بما يجري على الأرض ، لا أعرف هل إننا غافلون أم منفعلون؟
- دعنا نتناول شيئًا من الطعام ، إنني جائع وأعماقي تمتلئ باليأس والألم.

اعتذر وائل حمدي ومضى ليلتقي بابن خالته وزوج شقيقته، عاد إلى بيت أخته ثانية، استقبله ماجد بفرح، قال بعد أن أغلق ماجد الباب عليهما:

- وائل يا عزيزي اسمعني جيدًا، عملت خيرًا بمجيئك، الأوضاع جد خطيرة، هناك تحرك واضح داخل القطاعات العسكرية، هناك كلام كثير عن مرحلة جديدة ووشيكة الوقوع، إنهم يستهدفون إسقاط حكومة الزعيم، ثم لاحظ إن الاضطرابات في الكليات والمعاهد تبدو وكأنها الفتيل الذي سيضرم النار في الهشيم، أنا ضابط مستقل، علاقتي بالجميع جيدة، الكل يحترمون موقفي والكل يثقون بي، إنني أقول لك بثقة إن عملية التحول السياسي في الطرق قريبة وقد تكون أقرب مما نظن!

- ماجد هذه معلومات عامة يعرفها كثر من الناس في هذا الحزب أو ذاك، أو هذه الفئة أو تلك، إن الحرب في الشمال تزيد من حدة الاستقطاب في المؤسسة العسكرية، إن السلطة ورئيس وزرائها تدرك كل هذا، وتعرف عمق المتغيرات وسرعتها التي تجري على الساحة.

- أردت فقط أن أطلعك على ما يجري، وكذلك أفهم وجهة نظري، أرجو أن تأخذ حذرك!

ابتسم وائل وهو يقول:

- "وأين شئتِ يا طرقي فكوني أداة أو نجاة أو هلاكًا" رحم الله المتنبي، كان كما لو أنه يرثي نفسه.

رد ماجد:

- أردت فقط أن تكون على بينة مما يجرى حولنا.

- أشكرك على حرصك. استأذن الآن فلدي مشوار.

- هل ستمر على خالتي.

- لا سوف أذهب إلى الباب الشرقي.

صاحت آمال:

- وائل اشرب الشاي قبل أن تخرج.

رفع يده وهو يقول ضاحكًا:

- شاي إبراهيم أطيب شاي في العراق.

قبل أن يذهب إلى المقر؛ مر بمقهى إبراهيم، طلب شايًا على عجل، شربه ثم مضى إلى هدفه، وجد سعد حكمت جالسًا يدخن ، وقد جلس خلف المكتب:

- قبل قليل كان ثمة صوت يقول لي إن وائل عبد اللطيف في الطريق، وسوف يدخل الآن أو بعد دقيقة، وها أنت أمامي.

- القلوب سواقي، كنت على ثقة بأني سأجدك هنا، بل ومشتاق إليك.

- أعتقد أن صلاح لن يتأخر كثيرًا.

في هذه الأثناء دخل صلاح بقامته القصيرة وكرشه يتقدمه، سلم مبتسمًا ثم جلس أمام وائل، قال يخاطبه:

- الرفيق عاصم يريد رؤيتك على عجل، غدًا صباحًا.

- سأكون هناك.

- الوضع يزداد سوء في الكليات، اليوم في كلية العلوم حدثت مصادمات استدعى العميد الشرطة، وسمعت أنه في كلية التربية حدثت مصادمات ومعارك وكذلك في كلية الطب، سنرى ما في جعبة أبو سليمان من أخبار.

قال سعد حكمت:

- الرجل متعب، بقي الوحيد في الساحة السياسية والكل يحقد عليه.

رد وائل:

- علامات التقيد واضحة، أعتقد أن الأمور ستأخذ بالتصاعد حتى تتحقق كامل الأهداف، لابد أن نعرف من هم المستهدفون من كل هذا.

تجهم وجه صلاح ورد بنبرة عميقة:

- نعم هذا صحيح، لابد أن يكون الجميع على مستوى المسئولية.

تساءل وائل:

- من هم الجميع؟

- كل القوى الوطنية.

- إن شرخًا عميقًا وواسعًا بين هذه القوى، بل إنه يكبر ويتسع يومًا بعد آخر.

في هذه الآونة دخل هادي عزيز بوجهه الأبيض ونظراته الصماء:

- اليوم رفاقي المعارك وصلت إلى المقاهي، كنت في منطقة الفضل وشاهدت المعركة داخل المقهى وكان مركز الشرطة قريبًا لكنه لم يتدخل.

قال سعد حكمت متهكمًا:

- إنهم يعملون بهمة.

رد هادي عزيز بحسم:

- طبعًا يعملون بهمة لا أحد يرد عليهم والساحة الآن لهم وهم يلعبون في الوقت المناسب.

دخل كل من ناجي تركي وصباح مهدي، جلسا وابتسامة ناجي العالقة في طرف فمه لا تفارقه، قال:

- كأن على رؤوسكم الطير!

ثم وقف كل من أحمد سرور وصبيح محمود ونعمة محسن، تبادلوا التحية مع الموجودين، ساد بعدها صمت قصير، رن جرس الهاتف، رفع السماعة سعد حكمت:

- آلو. آلو. آلو.

لم يرد أحد عليه، وضع سماعة الهاتف مكانها، ثمة هاجس يعبث بأعماق وائل، هل تكون هي؟ ماذا لديها؟ ما هي المشكلة التي تعانيها، فردوس تزوجت وأصبحت ربة منزل، لا أعتقد، لا أعتقد أنها هي أبدًا، ربما يكون الأمر مصادفة، إلا أن جرس الهاتف عاد ثانية يقرع سحابة الصمت التي خيمت على الجميع، قام وائل مسرعًا، أخذ السماعة ووضعها على أذنه:

- آلو.
- نعم تفضل.
- أهلاً ومرحبًا، لا غير موجود، أعتقد أنه في البيت.
- ....
- لا أدري إن كان سيأتي أم لا.
- ....
- حاضر، في تمام الساعة الثامنة.
- ....
- مع السلامة.

وضع السماعة مكانها ثم استدار ليقول لهم:

- هيا نذهب إلى بيت أبو سليمان.

تساءلت العيون:

- ينبغي أن يكون في وزارة الدفاع في الساعة الثامنة.

رافقه إلى الوزارة كل من وائل وسعد وصلاح، أدخلوا الرجل الكبير على غرفة السكرتير الصحفي، ظلوا في الانتظار أكثر من ساعة ونصف الساعة، ثم خرج ثانية، بدت عليه علائم التعب واضحة، أحاطوا به، كان يدخن سيجارته وعيناه ساهمتان وصلوا إلى الباب الرئيسي للوزارة، ومن هناك استأجروا سيارة تاكسي مضت بهم نحو المقر.

في الغرفة الكبيرة جلسوا جميعًا ومعهم عبد الحميد صمد، تحدث الرجل الكبير بصوت متعب لكنه واضح:

- لقد هُددت بإحالتي إلى إحدى المحاكم إن عدنا للكتابة عن الديمقراطية والتعددية، وعن وضع البلاد وكذلك عن الحرب في الشمال، قال لي السكرتير الصحفي إن الزعيم غاضب جدًا منكم، تحدثت معه طويلاً حول وضع المقر وحاجته للدعم المادي، وأنه من الضروري أن تكون هناك حرية للعمل السياسي، قاطعني بحسم: "لا دعم مادي لكم لأن مقركم أصبح بؤرة لجماعة اتحاد الشعب، الصحيفة بدأت تنشر مقالاتهم وتعليقاتهم، خصوصًا بعد أن أغلقت في الفترة الأخيرة، أمر الزعيم بسحب السيارة وسائقها وعليكم أن تدبروا أموركم، لا أريد أن تناقش الأمر الآن، لكن من الضروري ونحن على أعتاب سنة جديدة أن ندعوا لاجتماع اللجنة المركزية كي نناقش جملة من الأمور التي تهم وضعنا

، وأعتقد أن موعد ١٥- ١٢ – ١٩٦٢ هو موعد معقول ومناسب لنا جميعًا كي نحضر ما نريد أن نناقشه ونهيء الرفاق في الألوية كي يشاركوا في هذا الاجتماع ، لدي إحساس أن هذا أخر اجتماع لنا ، ويبدو أن التطورات تسير بسرعة الضوء.

صمت لحظة وهو يبتسم وأردف قائلاً:

– هذا قدرنا ، سأرجع ثانية إلى البيت ، إنني بحاجة إلى راحة ، سيوصلني الرفاق وائل وصلاح وسعد ، ودع الجميع ومضى متمهلاً في طريقه إلى خارج المقر ، يحيط به جو من الغموض والخذلان والإحباط المرير.

أوصلوا الرجل الكبير إلى بيته في العلوية ، ومن هناك رجعوا ثانية إلى الباب الشرقي ، ودعهم صلاح المدفعي معتذرًا ، ثم مضى إلى بيته في منطقة المشتل ، أما سعد حكمت فقد اقترح على وائل أن يذهب إلى مكان يرتاحان فيه ، واقترح عليه غرفته في منطقة البنائين أو كازينو ومشرب براديس في شارع أبي نواس ، اتفقا على أن يذهب إلى غرفة سعد حكمت ، فتح سعد باب غرفته فغمت أنف وائل رائحة عطنة ، إذ أن الغرفة بلا تهوية ، وفراشه وأدواته بغير نظام ، ضغط على نفسه وجلس على أقرب كرسي أمام سرير سعد ، اعتذر سعد بلياقة عن فوضى الحجرة ، وقال إنه سيريح أعصابه فورًا ، اختار أحد

الكاسيتات وضعه في المسجل وضغط زر التشغيل ، انسابت الموسيقى متدفقة رائعة ، ثم بدأت الضربات تشتد شيئًا فشيئًا ، والصراع يشتد كذلك ، ثم تتلاشى الأصوات مرة واحدة ، ويبقى ثمة أنين يدل على أن خيط الحياة لم ينقطع بعد ، ويتحول الأنين إلى أصوات ، والأصوات إلى قوة تتدفق في عروق الحياة ، ويتعالى المجد ، وترتفع الأصوات ثم تشتبك وتنضح الموسيقى على أفق رائع وفضاء ممتد بعد ، وانتصار بلون الربيع وأزهاره وخضرته، الإنسان ينتصر يصارع جنون القدر وطغيانه وينتصر عليه. ارتفع صوت سعد:

- لا أمل أبدًا من سماع هذه الرائعة إنها السمفونية الخامسة لبتهوفن ، ويسمونها بالقدر ، إنها تمنح السامع قوة وثقة بنفسه.

وضع كأسين صغيرين على المنضدة، أخرج كمية من الجبس ، وضعه في ماعون ثم ركنه إلى جانب كأس وائل، وضع زجاجة الويسكي من نوع دنبل في وسط المنضدة، ثم ماعونًا فيه قطع من التفاح والبرتقال ، نظم فراشه بسرعة ، وأخرج تبعه ومع الغليون وضعه أمامهما على المنضدة، قال مبتسمًا:

- إنها جلسة متواضعة.

همس وائل:

- جلسة رائعة، أنت تملك حريتك كاملة يا سعد.

- وأنت؟

- إنني مرتبط بالوالدة، ومع أنني أشفق عليها من الوحدة التي تعيشها في البيت، إلا أنني لا أستطيع أن ألبي رغبتها بالبقاء أغلب الأوقات معها.

- في صحتك.

- هنيئًا.

- وائل، أشعر أننا في مفترق طرق حادة.

- بل قل إننا على شفير هاوية يا سعد!

- أنت تخيفني.

- هذه الحقيقة يا سعد ، إن الأفق مغلق أمامنا. الرجل أبو سليمان انقطعت به السبل، لقد قطعوا عنه حتى الراتب الذي كان يتسلمه منهم، وعادت زوجته إلى مهنة الخياطة ومكابدة صعوبات العيش، لقد أسر لي بذلك وأرجو أن يكون هذا سرًا بيننا.

- بالتأكيد.

- الأوضاع تسير من سيء إلى اسوأ، خصوصًا على مستوى الداخل ، حيث تنشط الفئات المعادية للسلطة وتعمل بكامل طاقاتها وفي الخارج فإن عدد الدول التي تقطع علاقتها الدبلوماسية يتصاعد يومًا بعد آخر، بسبب المطالبة بالكويت

، وآخر من قطع العلاقات الدبلوماسية مع العراق هي اليابان ، ويبدو أن الرجل في غيبوبة ، لم يعد يسمع أو يرى ما يحيط به إنها كارثة يا سعد أن يكون الحصاد أكداسًا من الرماد والتهشيم واللاشيء ، بعد هذا الكم الهائل من التضحيات والعمل المستمر.

- أنا أدرك المرارة التي تملأ فمك ، وأفواهنا جميعًا عندما طرحت قضية تسليم التنظيم إلى صلاح كنت أول المعارضين لا لأنك صديق ورفيق ، بل لأنه جهدك الذي أثمر لقد جئنا للمقر قبلك، ولكنك كنت البطل بيننا.

- سعد اسمعني قد لا نلتقي ثانية إلا في الاجتماع الذي دعا إليه أبو سليمان في الأسبوع القادم، سأقول لك سرًا آخر وأرجو أن لا تتفاجأ ، إن الرجل يعرف منذ اللحظات الأولى أننا خطوط مائلة، بعثوا بها لكي تحاصره ثم نتسلم الإجازة منه، ثمة خطأ في العمل أو الهدف، إنه يتمنى الآن أن يفاتح من قبل الجماعة كي يتسلموا الإجازة منه مع الأخذ بنظر الاعتبار الحفاظ على كرامته الشخصية والسياسية ، كأن يحدث ذلك من خلال اجتماع بين القيادتين، يتم الاتفاق على توحيد التنظيمين بتنظيم واحد.

- لا أعتقد أن ذلك سيحدث وخصوصًا أن الظرف الذي يحيط بالرجل قاس ، قد تتدخل السلطة لإلغاء الإجازة ، وإيداع الرجل ومن معه السجن.
- وارد جدًا هذا ، لكنه لا يعبأ بمثل هذه التصرفات السلطوية ، إنه يريد أن يتخلص من مجمل ما يحيط به ، وكذلك من المسؤوليات المادية والمعنوية التي تربكه وتؤذيه.
- هناك لا مبالاة من كل الأطراف ، وأعتقد أنهم أبعدوك عن التنظيم بسبب العلاقة القوية التي تربطك بـــ "أبو سليمان".
- الرجل يرى شبابه فينا ، ثم هو بلا أولاد قد تكون بالنسبة له أبناء أكثر مما نحن رفاق ينافسه على مستوى العمل والمسؤولية.

شكر وائل سعد أعلى ضيافته ، تمشيا حتى الباب الشرقي من هناك أخذ وائل إحدى السيارات الذاهبة إلى الصالحية ، حيث الساعة تشارف على الثانية عشرة.

(٩)

وقف في منطقة باص المصلحة ينتظر السيارة التي ستقله إلى الباب المعظم حيث مدرسته ، كان يقف على طرف الرصيف يتشاغل بالنظر إلى السيارات التي تمرق أمامه ، وإذا بجلبة ترتفع من أحد المحلات التي تطل على الشارع، كان هناك عراك وزعيق واشتباك ، ثم خرج بعض الشباب والرجال وقد اشتبكوا في وسط الشارع انضم أصحاب المحلات إلى زميلهم صاحب المحل ثم هرب بعض الرجال ، ورجع الآخرون إلى محلاتهم تبادلوا كلمات حادة وشتائم مقذعة كسروا معرض الرجل الزجاجي ، وبعثروا أحذيته في الشارع ، في هذه الآونة لاح الباص الذي يحمل الرقم (١٥) ، كان مزدحمًا ، لكن وائل قفز بسرعة واندس بين الراكبين ، تذكر الرجل الذي هاجموه ، كانوا يطلقون عليه (أبو القادمين) ، هكذا إذن ، إن العمل يتسع ويأخذ أبعادًا جديدة ، إنها إذن المأساة التي بدأت تفغر فاها لتلتهم الجميع.

وصل المدرسة متأخرًا بضعة دقائق ، وجد الطلاب والمدرسين في صفوفهم ، دخل الإدارة ثم بعد قليل جاء المدير ، قال لوائل مبتسمًا:

– شغلت صفك إلى حين وصولك.

- شكرًا أستاذ لؤي ولكن أريدك أن تكمل فضلك ، لدي عمل سأغادر المدرسة الآن.

رد الرجل وابتسامته تكبر:

- على راحتك أستاذ وائل سأدبر الأمر.

- أشكرك جدًا.

قال هذا وهو يرفع يده مودعًا. في الشارع استأجر تاكسي وحضر إلى منطقة العطيفية حيث بيت عاصم الحلبي ، كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف ، وجد سيارة أنيقة خضراء ، تقف أمام الباب من نوع أوبل ، دق جرس الباب ، لاح له رأس عاصم بنظارته، ووجهه ذي الشارب الكث:

- صباح الخير.

- أهلاً. صباح النور. تفضل.

دخل مع الرجل غرفة الضيوف ، وجد شخصًا يبدو في الأربعين من العمر ، أنيق الملبس قام ليقول بابتسامة باهتة:

- أهلاً أهلاً.

سلم وائل عليه.

- أهلاً بكم. صباح الخير.

قال عاصم وهو يتحدث إلى وائل:

- الرفيق إبراهيم عبد الأمير ، ثم التفت إلى إبراهيم مخاطبًا ، الرفيق وائل عبد اللطيف، أهلاً بكما. تفضلا بالجلوس.

جلس الثلاثة ، ثم قام عاصم وعاد بصينية الشاي ، أخرج سجائره وقدم لضيفيه العلبة ، قال عاصم وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- الرفيق وائل منذ متى لم نتقابل؟ أنا أعرف أنك غير راض عما يجري ، لقد عملت كبطل وأنجزت الكثير وإذا كان نتاج عملك قد نقل لغيرك فيبدو أن هناك ضرورة لذلك، وعلى كل حال فهنا رفيقك الجديد سيكون مسؤولك بعد هذا الوقت ، وسوف تتفقان على مواعيد الاجتماع أو اللقاء بحسب الظروف، فالرفيق إبراهيم له ظروفه أيضًا وأرجو لكما عملاً مثمرًا.

قال وائل بوجه متجهم:

- أردت معرفة سبب واحد يدعو الحزب إلى نقل التنظيم ويجعله بعهدة صلاح، حتى أن بعض الرفاق داخل التشكيل يتساءلون كذلك.

- أوامر الحزب تنفذ.

قال عاصم:

- ها أنا أنفذها والآن أناقش.

- للحزب أسبابه ، وقد تكون القضية برمتها من صالحك ولمصلحتك، فلقد تعبت كثيرًا.

ابتسم وائل ورد بصوت حاسم:

- لم أعد أقتنع بمثل هذا الكلام!

حدجه عاصم بنظرة قاسية لكنه رد عليه بنظرة أقسى ، ارتفع صوت رفيع وهامس لكنه واضح النبرات، قال إبراهيم:

- الجديد هو المهم.

تساءل وائل وهو يلتفت إلى إبراهيم:

- كل ما يحيط بنا جديد، إن شباكًا ترمى علينا.

تساءل وائل:

- لماذا لا يتسلم الحزب الإجازة ، ثم نذهب للعمل هناك من أجلها، ها هي بين أيديكم؟

- تلك قضية يحددها الحزب وسياسته.

رد عاصم ووجهه يزداد تجهمًا:

- متى يحدد الحزب الوقت الملائم ، ألا ترى أن الثمرة تكاد تسقط على الأرض أمام أعيننا؟

- الحزب هو الذي يقرر ذلك!

قال وائل بصوت قاس:

- ونحن ألا نقرر، ألا نفكر؟ ألسنا الذين عملنا وأوصلنا الأمور في المقر إلى هذا المستوى الذي يمكننا من خلاله أن نغير الواقع إلى واقع جديد، أليس هذا هو الهدف الذي ذهبنا للعمل من أجله هناك، ثم أقول لك إن الرجل "أبو سليمان" مستعد تمامًا للتعاون إنه في وضع لا يحسد عليه.

- وهل أنت الناطق الرسمي باسمه؟!

بدا الغضب واضحًا على سمات وجه وائل، خاطب عاصم:

- عليك أن تهذب ألفاظك، لا أسمح لأحد أن يتجاوز حتى ولو بإشارة على الآخرين أو ينصبوا أنفسهم أئمة.

فوجئ عاصم بالهجوم السريع، نفث دخان سيجارته ثم قال بهدوء:

- لم أقصد أي تجاوز رفيق وائل، كل الذي قصدته أن الحزب هو الذي يقرر.

رد وائل بسرعة:

- نحن الحزب أنا وأنت وهم، أما الاتهامات فهي مرفوضة.

تدخل إبراهيم:

- أعتقد إلى هنا ويكون الاجتماع قسريًا أيها الرفيق عاصم، شكرًا لك، وسنخرج أنا والرفيق وائل سويًا وفي الطريق سنتفق على مواعيد اللقاء وأشياء أخرى.

قام وائل ثم عاصم، وقف الاثنان ينظران إلى بعضهما، ساد صمت قصير، فتح عاصم يديه وتقدم نحو وائل واحتضن كل واحد الآخر، قال عاصم بصوت بدا متهدجًا:

- كما التقينا أول مرة على الود ليكن الوداع أيضًا كذلك دائمًا يعجبني الإنسان الشجاع حتى لو كان عدوي، فكيف إذا كان رفيق درب؟

رد وائل وهو يحدق في عيني عاصم:

- ستبقى رفيقًا وصديقًا أعتز به على الدوام.
- وستزورني؟
- إن سمحت الظروف بذلك، وأنت أدرى بالظروف وداعًا، وشكرًا على الضيافة.

تقدم عاصم ضيفيه إلى الباب، صافحهما بحرارة ثم ركب وائل السيارة بجانب إبراهيم، رفع يده مودعًا ثم انسابت عيناه تراقبان الطريق الذي امتد أمامه باتجاه الجسر الحديدي، تساءل إبراهيم:

- لماذا أنت مستثار، الذي يرى وجهك يظن أنك لم تعرف الأسى أبدًا، طريقنا شائك وطويل وصعب، ولكن الذي يجعله أكثر صعوبة هو نوع الناس الذين نتعامل معهم أو يتعاملون معك، المهم أننا سنلتقي في الوقت الذي تريده، فليس لدي أي مانع في هذا المجال، ثم إن اللقاء بيننا سيكون لقاء

أصدقاء، لسنا خلية رفاق مكونة من مجموعة بل أنا وأنت، ولذا أرجو أن يكون اللقاء بيننا مثمرًا، وفي الوقت الذي تريد.

- لا أعرف وقتي، فأنا صباحًا في المدرسة، وقد تجاوزت على الرجل مدير المدرسة أكثر من مرة مستغلاً صداقته وزمالته، بعد الظهر أنا في المقر إلى ساعة متأخرة، ثم لدينا في الأسبوع القادم اجتماع اللجنة المركزية لمناقشة الأمور التي تجري على الساحتين الداخلية والخارجية، الرجل في وضع لا يحسد عليه، لقد قطعوا عنه كل نوع من أنواع المساعدة المادية، علاوة على أنه متشائم من الوضع تمامًا وهو على علم بكل ما يجرى حوله.

- لا تنس أنه مناضل قديم خبر الحياة والعمل والسجون، علاوة على ثقافة واسعة باللغتين العربية والإنجليزية، إنه مترجم ممتاز.

ضحك وائل وقال:

- صه. لا تجعلهم يسمعون ما تقوله، قد تتهم أنت الآخر بما ليس فيك.

ضحك إبراهيم عبد الأمير وقال:

- الاتهامات المجانية جزء مهم من أجزاء العمل في حزبنا، والمفردات في هذا المجال كثيرة.

- غريب!!

- لا تعجب يا عزيزي أو كما يقول علي الوردي لا تعجب من هذا البلد العجيب ، على كل حال سأعطيك رقم هاتفي ، وسنتفق على اللقاء بعد المخابرة.

- هذا يسعدني.

- أين تصل؟

- إلى شارع الكفاح، أبو سيفين.

- سأمر من هناك في طريقي إلى حي ١٤ تموز.

فرد وائل بعد أن أخذ رقم هاتف إبراهيم عبد الأمير ، ودعه بمشاعر محايدة ثم مضى نحو مقهى ناصر.

(١٠)

ترى المقر كخلية نحل، الجميع يتحرك بسرعة، هناك من يصعد إلى الدور الثاني ثم ينزل ، وهناك من يتكلم مع مجموعته ليوجهها إلى ما عليها من عمل تقوم به ، الساعة تُشير إلى السابعة والنصف من مساء بارد وممطر ، أعضاء اللجنة المركزية بانتظار مجيء السكرتير العام ، هناك لافتة توسطت "الطارمة" الكبيرة داخل المقر ، مجيء الانعقاد الأول للجنة المركزية ، رأى صلاح المدفعي وهو يضحك بسعادة واضحة على وجهه المكتنز وهو يتحادث مع ناجي تركي، التقت العيون فقالت الكثير، توجه ناجي إليه ودخان سيجارته يتطاير من بين شفتيه متسائلاً:

- لا يليق هذا الوجوم والمناسبة التاريخية التي نحن بصددها، ماذا هل تعاني ألمًا؟

أجابه بهدوء:

- لا شيء، لا شيء أبدًا، إنما هو الخيال لا سيطرة لي عليه بعض الأحيان.
- متى يأتي أبو سليمان؟
- أعتقد أنه لن يتأخر، أو هو في الطريق إلينا.

فرك ناجي تركي يديه وهو يقول:

- الساعات القادمة ستكون شديدة الوطأة.

- الحياة كلها شديدة الوطأة علينا.

- المندوبون لم يحضروا.

- أعتقد أن ظروفهم ليست على ما يرام ، وقد بعثوا برقيات اعتذار لأبي سليمان.

توجه سعد حكمت نحوهم، توقف بجانب وائل وهمس:

- كل شيء على ما يرام، قاعة الاجتماع مهيأة تمامًا ومدفأة.

تساءل وائل:

- من كلفتم مسؤولية الاستعلامات؟

قال سعد:

- كلفنا أنا وصلاح وشامل سلمان ، وتجده الآن وقد انتصب وراء المكتب كأنه الرمح.

في هذه الأثناء تعالت أصوات وتسارعت خطوات تقدم الرجل الكبير بهدوئه المعهود إلى داخل المقر. رد سعد حكمت بالتصفيق فصفق الجميع، كما لو أنه فوجئ بالموقف؛ توقف أبو سليمان في مكانه، وأدار البصر بين الذي يقفون من حوله، كان وجهه بغضونه العميقة قد تشرب حمرة، ولاح لوائل أن ابتسامة تتدلى من زاوية فمه ، بل إنها تكاد تسقط ليحل محلها وجوم

عميق ، يتناسب مع سحنة الوجه المتعب ، قال بصوته الهادئ الرصين:

- مساء الخير رفاق، وأشكركم على الحفاوة التي قوبلت بها.

توجه ناحية السلم وبدأ يرتقيه ومن خلفه وائل وسعد وصلاح ونعمة وناجي وصباح وأحمد سردار. ثمة خطوات ذات وقع مسموع على ساحة المقر، هتف أحمد سردار:

- إنه الرفيق فيصل عبود من البصرة.

تصافح معهم كان تعب السفر واضحًا على محياه ، صافح بحرارة أبا سليمان ثم أخذ مكانه إلى جانب المجموعة التي جلست متحلقة في نصف دائرة أمام مكتب أبي سليمان ، أدار رأسه بين الحاضرين وتساءل:

- لم لم يحضر بقية الرفاق؟

أجابه صلاح:

- أعتقد أنهم في الطريق.

في هذه الآونة دخل غرفة الاجتماع كل من عبد الحميد صمد وهو ينفخ الهواء من أنفه بصوت مسموع وعلائم القلق والتوتر بادية على سمات وجهه بوضوح تام ، ثم دخل هادي عزيز بعينيه القلقتين، كذلك لحق بهم مروان السعدي. كان جو الغرفة دافئًا، ثمة همسات متبادلة بين الحضور، في حين وضع الرجل

ورقة صغيرة أمامه وأسند يديه إلى المكتب الواسع، بدا صوته وكأنه يأتي من بعيد:

- أرحب بكم أيها الرفاق الأعزاء ترحيبًا حارًا وأشكركم على حضوركم وشعوركم بالمسؤولية الملقاة على عواتقنا ، وأتمنى لهذا الاجتماع أن يخرج بقرارات مهمة على صعيد القضايا التي ستناقش، ليس تقريرًا كما جرت العادة في مثل هذه المناسابات، بل هي ملاحظات وهوامش وتعليقات على أمور كنا قد كتبناها في المقالات الافتتاحية لصحيفتنا وسنختصر جميع هذه الأمور بثلاثة نناقشها ثم نرسم خطوات سياستنا القادمة على ضوء ما ستصل إليه مناقشاتكم وملاحظاتكم. هذه الأمور الثلاثة هي الوضع الداخلي، الوضع الخارجي والوضع المالي الذي يمر به التنظيم منذ البداية كنت على علم بأن هذه التجربة لن يكتب لها النجاح، لكن الأمور سارت في الطريق الذي رسم لها، وكنت على علم بأن جماعة اتحاد الشعب لن يقبلوا الواقع الجديد ولن يقروا بالهزيمة، لذا فتحت الأبواب مشرعة لكي يبعثوا بأعضائهم إلينا، ولقد قمتم بدور رائع ومشهود في تفعيل العمل على كل الأصعدة وكنت متفائلاً بكم حقًا ، ابتداء من الرفيق وائل وانتهاء بالأعزاء من رفاقنا في بقية الألوية، وكذلك بقية الذين التحقوا بالتنظيم فلكم شكري الجزيل وودي العميق

وأرجو أن يبلغوا الجماعة بأن الإجازة جاهزة، فق مطلوب الاتفاق على خطة نتفق من خلالها معهم على الخطوات المطلوبة والتي سنصل معه إلى ما نريد، لا أكشف سرًا إذا قلت لكم إن الوضع السياسي في الداخل خطير، وخطير جدًا.

"كنت على علم بأنك تعرف كل شيء، ومنذ البداية، فرجل خبر الحياة والسجون والناس لا يمكن أن تمر عليه الأحداث دون تحليل وتقويم وتعليل، هناك تحديات مصيرية تواجهها السلطة في هذه الظروف".

"أواه يا راجحة، لماذا يلح عليّ خيالك الحبيب وفي مثل هذه الأوقات لماذا؟ إنني امتلئ بالهواجس، وكل هاجس عالم قائم بذاته".

- أريد أن أقول إن العساكر قادمون ولا تطلبوا من الناس أن يفعلوا المعجزات فليس عدلاً أن تقاتل المدرعات والطائرات وبقية الأسلحة بالعصي أو بمسدسات صدئة لا يمكن لأي فئة أن تحقق أهدافها بدون إمكانات ومستلزمات وجهود حثيثة لتحقيق ما تصبوا إليه، وستتذكرون كلامي هذا عندما تبدأ الظروف بفرض معركة غير متكافئة تمامًا ما بين جماهير عارية إلا من الشعارات وبين أسلحة فتاكة لا يمكن مواجهتها إلا بشبيهها أو على مستواها، فليسمع كلامي هذا

أولئك الذين يتاجرون بمصير الجماهير ومستقبلها ولكني أعلم أن لا جواب وكما يقول الشاعر:

لقد اسمعت لو ناديت حيًا   ولكن لا حياة لمن تنادي

ها هي الساعات تسقط متعبة ونسقط نحن معها، أقترح بعد موافقتكم أن نشكل مجانًا لمتابعة ما قبل، أو لإضافة ما ينبغي أن يضاف وكالتالي لجنة التحرير، لجنة متابعة أعمال المقر والتنظيم لجنة للمالية، وكيفية إيجاد سبل جديدة لرصد متطلبات العمل، وأيضًا لمساعدة إيرادات صحيفة الحزب، وأيضًا سوف نفاتح الجهات الرسمية بالمبالغ المخصصة لنا، والتي حجبت منذ فترة ليست قصيرة.

هناك أيضًا حقيقة ينبغي أن نؤشرها وهي أن الصحيفة استوعبت الكثير من مقالات وأدبيات وتعليقات جماعة الاتحاد وأنا على علم بهذا التعاون وراض عنه لقد حوربت وقطعت كل إعانة بسبب أنني تركت الأبواب مفتوحة، ولقد سمع الرفيق وائل في ممثلية ألمانيا الديمقراطية ما قاله الزعيم لي من أن جماعة الاتحاد قد غزوا التنظيم، وأنهم يصولون ويجولون فيه، كنت أود أن أقول له إنه حزبهم ومن حقهم علينا أن نوفر لهم فرصة العمل العلني، لكنه أدار وجهه ومضى إلى جهة أخرى، لا ينبغي لنا أن نيأس، فالمناضل الحقيقي لا يعرف اليأس، علينا أن نتجاوز الصعوبات، وأن نتحاور مع الجميع، لقد أخطأ

الآخرون عندما أغلقوا مقرات أحزابهم وخصوصًا جماعة الأهالي، لا أدري إذا كانوا قد تعودوا العمل من خلال الصالونات المترفة!

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة، بدا الإنهاك واضحًا على وجه الرجل وحركاته، كما بدا صوته متعبًا، صمت لحظة ثم قال:

- أعتقد إذا اتفقنا أن ننهي اجتماعنا الآن ونستمر في بحث الأمور وما قد يطرح من الآراء في اجتماع يوم غد، بالنسبة للرفيق فيصل عبود، سيكون ضيفنا ومكانه في المقر مع الرفيق هادي عزيز، هناك فردين وأسرة ثلاثة تفي بالحاجة.

ارتفع أكثر من صوت:

- إنه ضيفنا وبيوتنا هي بيته.

رفع الشاب يده محييًا وارتفع صوته بالشكر لأبي سليمان ولكل الرفاق. قام الرجل الكبير وخرج من خلف المكتب، أحاط به المجتمعون، ابتسم ثم قال:

- تمنيت أن ألتقي بهذه الطاقات الشابة الرائعة في مقتبل العمر والشباب، لكان الأمر قد اختلف بالتأكيد، ولكن ما كل ما يتمنى المرء! أرجو أن يرافقني كل من الرفيقين وائل وأحمد سردار إذا لم يكن لديهما مانع.

رد الجميع:

- إذا شئت نرافقك جميعًا.

- سعيد بكم حقًا وإلى لقاء.

مضى في طريقه نحو السلم ينزل درجاته بهدوء ولحق به المجتمعون، رافقوه حتى باب المقر ثم مضى نحو الشارع مع وائل وأحمد، ليأخذوا سيارة أجرة توصل الرجل الكبير إلى بيته في منطقة العلوية.

(١١)

تمضي الأيام بطيئة مثقلة كئيبة تعكس كآبتها على النفوس وترش رمادها على الوجوه ، مناقشات وتحليلات واستطرادات وعبارات تتكرر كأنها لازمة لمقطوعة موسيقية رديئة ، الخطر يداهم الجميع ، الحرب في الشمال تأكل الأخضر واليابس ، مطالب السلطة بالكويت يحدث تداعيات ومواقف دولية لا حصر لها ، التنظيم والعناية به فتح قنوات حوار مع كل القوى السياسية من أجل توحيد المواقف ، شركات النفط وما تستطيع أن تعمله ، القوى التي تتربص من وراء الحدود وتتحين الفرص كي تضرب بعنف ضربتها الأخيرة بالواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، آيل إلى سقوط محتم ، ويسقط عبد الحميد صمد بيننا كما لو كان مات إثر ضربة مفاجئة ، وينقل إلى مستشفى الشعب بجلطة قلبية حادة ، كان الرجل عبارة عن بركان متحرك ينفث شواظه على مدار الساعة وأنت أيها الخاسر الكبير ، تمضي أحلى وأجمل سنواتك في فراغ لا نهاية له ، ترى كيف ستمضي الأيام القادمة ، لقد عاقبتني وهذا من حقها ، سافرت فجأة إلى لندن ، دورة دراسية لمدة ثلاث أو ستة أشهر في مجال التأمين البحري ، هكذا أخبرتك آمال ، قالت كانت مخنوقة الصوت تكاد تجهش بالبكاء وهي تكلمني عن سفرها المفاجئ ، ياللقسوة

، ها هي الأيام بأحداثها تسير في الطريق المعاكس لك، ولكل ما تفكر به أو تطمح به، إذن أنا أخر من يعلم يا راجحة أهو عقاب تنزليه بي في الوقت المناسب بل هو عذاب مضاف إلى عذاباتك التي لا حصر لها، ألم تقل لك شيئًا محددًا يا نوال، تهز رأسها، لقد رفضت حتى فكرة توديعها أجهشت وأجهشت معها، ثم قالت تحياتي للجميع، تعلميني درسًا في القسوة والآلام، لم يعد في الأعماق أي فراغ لهما، لقد امتلأ يا راجحة منذ زمن بعيد، إنني أستحق هذا العقاب، لقد كان ترددي من أجلك كان خوفي عليك أكبر وأعمق من خوفي على نفسي ، استمرأت فكرة العذاب وتخيلت أنني أضحي من أجلك ، مع علمي بمعاناتك العميقة والمستمرة، لقد كنت ذكية على الدوام وها أنت تثبتين ذلك مرة أخرى ، هذا هو الحل المناسب لوضعك في هذه الظروف التي تحيط بك ، لقد تخلصت من ضغوط العائلة ، وكذلك الدائرة ، وأيضًا عقاب مناسب وضربة في الصميم وفي الوقت المطلوب، ترى كيف أستطيع أن أتكيف مع هذا الواقع الذي يحيطني ، شهور ثلاثة أو ستة، لا أراكِ فيها ولا أسمعك ولا أشم عطرك الحبيب إلى روحي "الفيجي" ، إنه ينشر غلالة من السعادة تخترق عتمة النفس وتنشر ظلاً من السعادة والألق ودفقًا من مشاعر ملونة رائعة تأخذني إلى أماكن بعيدة واسعة ، ياللأيام التي تمر سريًا كالأحلام، بضعة أيام قليلة وندخل سنة جديدة،

هل ستكون سنة كسابقاتها نرنو من خلال أيامها إلى السراب ونحسبه الرواء القريب منا ، آه ثمة ألم جديد قديم ، الوالدة ، مازالت مضربة عن الكلام معي ، أدخل البيت وأخرج منه كأني غريب أو مستأجر لغرفة من غرفه ، ولكم حاولت معها ، ولكِ الحق أيتها العزيزة في كل ما تفعلين ، كأن لعنة تلاحقني ، أنتم تعاقبونني مرة واحدة ، راجحة تسافر وتبعد من أجل إنزال العقاب الملائم لي ، والذي أستحقه من وجهة نظرها ، وأنت أيتها الأم العزيزة والتي لا غنى لي عنها أبدًا ، تعاقبيني بصمتك المستمر والقاسي ، طيلة هذه الفترة رفضت كل أعذاري وتوددي وقبلاتي ، اكتفيت "بكرم" حفيدك الرائع ، واستغنيت به عني ، ربما لا تقصدين إيلامي ، ربما لا تقصدين معاقبتي ، ولكن ثقي أن ازدواءك عني يزيد الرماد في الأعماق والألم في العقل ، حتى أنتِ يا آمال أدخل بيتك فأجدك بعيدة عني ، أين ابتسامتك الحلوة التي تستقبلين بها أخاك ، لم تكوني شقيقتي فقط ، بل أنت الصديقة والأخت ورفيقة الأيام الخوالي ، منذ وفاة الوالد وكنت في بداية الصبا وأنت تصغريني بسنتين وجد كل واحد منا ملاذه في الآخر ، ولم يتغير شيء من تلك المشاعر بل تعززت أكثر فأكثر عندما انضمت إلينا راجحة خالد وحتى الكلية وبعد التخرج ، تزوجت أنت ماجد فتاح ابن خالتك ، واعتبرت بيتك المملكة التي أنت تاجها ، أعلم بحبكما وكنت ولازلت أحب ماجد كشقيق

وصديق ، كان رزينًا كتومًا هادئًا يحدد أهدافه بدقة ، ويمضي بأقدام ثابتة لتحقيقها ، حتى أنت يا آمال تتغيرين ، تقابلين أخاك بهذا الوجه الذي لا أعرفه ، لن أدق بابك ثانية أبدًا ، كنت أظنك ستكونين عونًا لي ، وإذا بكِ ترفعين بوجهي مشاعر لم أكن أعرفها ولا أريد معرفتها ، لابد من شيء يبقى في أعماق الإنسان لوجه أحبه أو صديق ضحى من أجله ، لماذا تنكرون وجهي جميعكم.

راجحة أيتها البعيدة القريبة ، ترى هل تتألمين كما أتألم؟ بالتأكيد لن أقول ليتني لم أعرفك ولم ألتق بك ، ساقول على الدوام ومهما كانت الظروف إنك من أحلى الصدف التي قابلتها في حياتي ، أحلى وأجمل أمل ، يبقى يدغدغ الأعماق ليبعث فيها الربيع كلما حاول الخريف أن يقترب من دائرة الشوق والخضرة والتجدد لكن أين الربيع؟ ها هو يمضي بعيدًا ويتركني في وجود مشاعر كأنها الحجر تحرق أعماقي تحرقني ، تذكر مقطعًا من قصيدة السياب "مدينة السندباد":

يا أيها الربيع

يا أيها الربيع ما الذي دهاك؟

جئت بلا مطر

جئت بلا زهر

جئت بلا تمر

وكأن منتهاك مثل مبتداك!

منتهاك مثل مبتداك أو العكس

في عتمة رؤاه لاح له طيف حمدي مصطفى، صديق العمر وحبيب اللحظات الحلوة إنه بحاجة إليه، بحاجة إلى مشاعره وطيبته وشفافيته، وجده ساهمًا غارقًا في خيال بعيد، انتفض واقفًا، احتضن كل منهما الآخر، قال حمدي:

- كدت أقوم لأبحث عنك، أين أنت يا وائل؟

- في هذا العالم الضيق جدًا.

تأوه حمدي بألم:

- جاء دوري لأسألك ما الذي تعانيه، رأيتك ساهمًا كأنك خارج هذه الدنيا وما فيها.

- اجلس أولاً واشرب شايك ثم نتحدث.

جاءه ناصر باستكان الشاي وابتسامته لا تفارق شفتيه، قال وائل:

- اتساءل أحيانًا هل هذا الرجل سعيد؟ وما هي مصادر سعادته، من أين له هذه الابتسامة الحلوة؟

- يبدو أن السعادة كالقدر تعطي لهذا وتحجب عن ذاك كالرزق.

- هل تكون القناعة هي السبب؟

- ربما، ربما. لا يستطيع المرء أن يقطع بشيء.
- قل لي لماذا أنت شاحب ومتورم الأعماق؟
- متورم الأعماق! هذا تعبير جميل، فعلاً أنا كذلك متورم الذات والعقل والأعماق، وضف ما شئت إلى ذلك.
- هل من جديد؟
- لقد تزوجت!
- أميرة؟
- لا. أميرة تزوجت بين ليلة وضحاها من أحد القاطنين في الكويت ، أرضى نزوعها الغريب للمادة والمظاهر ، أغدق عليها وعلى أهلها ومضى بها.
- لست بأفضل منك.

التفت حمدي التفاتة حادة وحدق في وجه وائل ثم تساءل بصوت حاد النبرات:
- ماذا تعني؟
- سافرت في دراسة للتأمين البحري في لندن!
- هل ودعتك؟

هز وائل رأسه بالنفي ثم قال:

- كنت في الأيام السابقة مغرقا بأعمال أخذت مني ساعات يومي ، قالت آمال أختي إنها اتصلت بها لتودعها وكان صوتها يقطر حزنًا.

- وائل ماذا يجرى لنا؟ أو حولنا؟

- لا أدري. ربما سوء حظ، سوء تصرف، عدم تقدير للأمور بالشكل الموضوعي المطلوب.

- يبدو أننا نشرب من كأس واحدة.

- استمراء الألم فاستمراء الذل وعلينا أن نرفض هذا الأسلوب في الحياة، نرفضه تمامًا. حمدي أحتاج إلى هاتف لأتصل بصديق ينبغي زيارته الآن.

- هيا، سمير صاحب محل الكماليات لديه هاتف.

قال وائل بعد أن اتصل بإبراهيم عبد الأمير واتفق معه على زيارته، اعتذر لحمدي ثم مضى في طريقه نحو حي ١٤ تموز، وجده واقفًا أمام الباب، ابتسم له ابتسامة كبيرة.

- أهلاً. أهلاً تفضل.

- أهلاً بكم!

مضينا نحو داخل البيت، قال إبراهيم:

- أعيش وحيدًا إلا من الوالدة وهي إما عند بناتها أو نائمة.

ثم ضحك وقال:

- هذا قدرنا.

- تزوج.

التفت إليه قائلاً:

- زيادة هموم في زمن الهموم ، لماذا؟ على كل حال تفضل اجلس وأنا سأعمل الشاي.

- لا داعي قبل قليل شربت شاي في المقهى، اجلس وقل لي ما الجديد؟

- تفضل أولاً سيجارة وثانيًا لا جديد سأسمع الجديد منكم.

تكلم وائل عما فعله مع مجموعته في المقر ولخص عمل الأيام الثلاثة بتركيز ووضوح ، ثم سادت فترة صمت قصيرة قطعها إبراهيم:

- أنا حائر يا وائل أو أيها الرفيق وائل، حائر فعلاً، لم أعد أفهم ما يجرى حولي.

- لماذا الحيرة أنا مستغرب ، لماذا لا يفاوضون الرجل ويستلمون الإجازة والمقر ، لابد من حفظ ماء وجهه ، هذا حق من حقوقه.

- الأوضاع تتطور بسرعة، الأوضاع ليست في صالحنا صدقني ، قد لا نلتقي ثانية لا أعرف بالضبط ما سيجرى أو يقع ، ولكن الرجل يهتز ويكاد أن يسقط، أيام الضربات التي توجه

لسلطته ، إنه كالثمل لا يدري من أين الطريق ، اسمع يا رفيقي لدي عرض هو في حقيقة الأمر لي ، ولكني مستعد للتنازل عنه من أجلك لا تسألني لماذا ، قد يكون السبب هو إنني ارتحت لك تمامًا ، هناك زمالة دراسية إلى جامعة محترمة ولمدة ست أو ثمان سنوات وأنت مدرس للعربية ستحصل على الكانديدات وهي مساوية للدكتوراة إن قبلت العرض فأنا جاهز للعمل من أجل سفرك خلال شهر أو شهرين على أكثر تقدير.

قال وائل:

- أعطني فترة للتفكير ، لقد فاجأتني.
- ولماذا التفكير ، إنها فرصة عمر لا تعوض ونسيت أن أقول لك إن شقة ستهيء لك ، ها ماذا تريد أكثر من هذا ، أريد الجواب خلال فترة لا تزيد عن ثلاثة أيام ، إنهم يريدون الأسماء كي يبعثوا بها ليحجزوا مقاعد دراسية لهم أرجو أن أسمع منك ما يفرحني.

تجاوز ساحة التحرير ثم انعطف إلى الجانب الأيمن ، دخل الزقاق الذي يؤدي إلى المقر ، سلم على الجالسين ثم أخذ مجلسه قريبًا منهم ، قال سعد حكمت:

- اتفقنا على سهرة رائعة بمناسبة العام الجديد ستكون معنا.

قال ناجي تركي:

- لابد من ذلك ، الاحتفال برأس السنة الميلادية الجديدة تقليد نضالي لا ينبغي تجاوزه.

ارتفعت موجة ضحك من الجالسين وخصوصًا من صلاح الذي كان يتصيد النكتة ويتذوقها بطريقته الماهرة، قال صلاح:

- يومان فقط وسنحتفل بالعام الجديد الذي...

ثم صمت لكن صباح مهدي وهادي عزيز حدقا في وجوه الحاضرين باستغراب، علق صبيح محمود:

- نرجو أن يكون عامًا حافلاً بكل ما يفرح الآن هنا وفي أرجاء العالم كله.

ياللتمنيات الساذجة. تُرى لماذا صمت يا صلاح يا مدفعي ولم تكمل كلامك ، ماذا يخبئ العام الجديد لك ولنا من مفاجآت ، ما هو رأي السيد صلاح في هذا؟ ماذا يستقر في هذا الوجه من انفعالات، أنا معجب بك كممثل جيد. ارتفع صوت سعد:

- ماذا يا وائل لم أسمع رأيك؟

- أين تسهرون أولاً ، وثانيًا لا أستطيع أن أعدكم بشيء ، لا أعرف ظروفي.

- نسهر في البراديس وصاحب الكازينو المطلة على دجلة معرفة قديمة ، أما الظروف فتلك قضية يمكن تجاوزها ، كلنا في أسوأ ظرف كما ترى.

قال سعد وقد ارتفعت الضحكات ثانية.

- سأكون معكم.

- أرحتني يا أخي.

قال سعد ثم علق صلاح:

- السهرة بدونك لا طعم لها يا عزيزي.

- اشكر عواطفكم الكريمة، من زار عبد الحميد هذا اليوم؟

قال سعد:

- لقد كنت مع ناجي وصبيح وصباح عنده، إنه في حال لا بأس بها، إن الرجل يقاوم مرضه، لكن المرض يحول الإنسان إلى ذليل وضعيف، ياللقسوة.

همس وائل:

- أرجو له الشفاء العاجل.

أكمل ناجي:

- مقالتك جميلة عن السياب، وسفره في المراحل الأولى من حياته.

- والحق أقول فإن مقالتك "لو" تستوفي القارئ تمامًا، لقد غطيت من خلالها مساحة واسعة من مظاهر الحياة التي لا تسير في طريقها المطلوب.

ثم قام واقفًا. تساءل سعد:

- إلى أين؟

– إلى المطبعة ، سأقوم بتصحيح الصفحة الأولى والثانية إذا جهزت.

– خذني معك.

قال صلاح:

– وأنا معكم وستبقى الصفحات الأخيرة بعهدة نعمة حسن.

خاطبهم ناجي:

– ولماذا تتركوني وحيدًا، هل أنا يتيم؟

ضحكوا جميعًا وهم في طريقهم إلى الخارج.

(١٢)

تقع المطبعة في منطقة السنك خلف سينما روكسي ، كان الجو باردًا وثمة رذاذ خفيف ينتشر في الفضاء فيغيب المناظر ، ومصابيح الكهرباء والناس مروا من أمام البيان الأول قاطعين الطريق نحو شارع الرشيد ، قال ناجي متهكمًا:

- هذا المانفيستو الذي فقد محتواه على يد الذي كتبه.

تساءل سعد حكمت:

- من قال إن الثورات يخطط لها الأذكياء ، ويفجرها المجانين ويستلهما الجبناء.

رد تركي بسرعة:

- تلك أمك يا سعد!

ضحكوا بأصوات عالية وأشرق سعد بضحكة فاستمر يسعل وتركي يطبطب على ظهره وهو يقول:

- ألف عافية عيوني ، اضحك يا هذا ملء شدقيك كما قال العرب.

دخلوا المطبعة ووجوهم منفرجة الأسارير ، استقبلهم صاحب المطبعة ثم جاء العمال بالصفحتين الأولى والثانية، قال صلاح:

- بحاجة إلى شاي قبل العمل، ما رأيكم؟

قال سعد:

- نحن موافقون.

جاء العامل بصينية الشاي، كانت هناك أنغام تصافح أسماعهم بدا سعد شاردًا سأله صلاح:

- ما بك؟

- إنها التاسعة، أية إذاعة هذه؟

قال صاحب المطبعة:

- أعتقد أنها القاهرة.

لكن الموسيقى لم تستمر طويلاً انقطعت أنفاسها فجأة ليحل محلها حديث لم يسمعوا منه شيئًا بعد اجتماع صاخب من سعد.

- التاسعة يا جماعة نشيد الفرح لماذا لا تسمعون الموسيقى العالمية لترتفع بكم إلى سماوات السعادة والخيال.

رفع ناجي رأسه محدقًا في وجه سعد، وهو يقول:

- اجلس يا هذا ودعنا من التاسعة والعاشرة.

قال سعد:

- تعودت أن أسمعها قبل أن أسمع أي شيء، في كل رأس سنة أتعلمون ماذا قال فاكنر، باخ أو أحد أساطين الموسيقى.

إن الله خلق الكون ثم خلق الكرة الأرضية وبعدها خلق الناس، ثم خلق بيتهوفن كي يكتب لحن السمفونية التاسعة. أسمعتم ولو أنني تصرفت بالكلام قليلاً ولكن المعنى حقيقي.

رن جرس الهاتف، كان المتحدث أبو سليمان قال لصاحب المطبعة أن يعطي السماعة لوائل:

- أهلاً كيف الصحة؟

- ....

- معافى. تمنياتي بالشفاء.

- ....

- نعم. نعم، أنا وسعد وناجي وصلاح.

- نعم كما تشاء، نعم ممكن.

- ....

- لا لا كن مطمئناً، سنتفق على صيغة ما.

- إلى لقاء.

وضع سماعة الهاتف مكانها، كان صاحب المطبعة قد غادر الغرفة، قال وائل:

- إنه يفهم في الأصول، على كل حال اعتذر أبو سليمان عن كتابة المقال الافتتاحي وقال إنه مريض وعلينا أن نتدبر

الأمر، فإما أن نكتب مقالاً للصفحة الأولى، أو نستعيض عنه بشيء آخر.

بعد مداولات اتفقوا على ملء الصفحة ببعض المقالات الموجودة لديهم.

كانت الساعة تُشير إلى العاشرة مساء، قام وائل واستأذن بالذهاب، مضى خارجًا من بناية المطبعة، توجه إلى شارع الرشيد، ومن هناك مضى مسرعًا نحو بيته، فتح الباب ودلف بهدوء، أحست به فسعلت كي تنبهه إلى أنها منتبهة ولم تنم بعد، دخل عليها الغرفة، سلم وأراد أن يهم بالخروج، قالت بصوت محايد، هكذا أحس به:

– الطعام في المطبخ، هل أعده لك؟

ردَّ شاكرًا:

– كلا، كلا. سأتناول طعامي بعد أن أبدِّل ملابسي.

مضى إلى غرفته، نزل ثانية إلى المطبخ أعد طعامه بسرعة، بدأ يتناوله، طافت بخياله المثقل بالأفكار والمشاعر، صور اختلطت مع بعضها حتى أنه لم يعد يتبين إلى أين تمضي هذه العذابات به، غدًا نودع سنة سقطت من شجرة العمر، غريب أمر الناس، يحتفلون بإهداء سنوات حياتهم للفناء، غير مبالين بما ينتظرهم في الغد، العمر حلم، لا يفتح الإنسان عينه على

الحياة، حتى يغمضها بسرعة، صعد ثانية، إلى غرفته، انطرح على فراشه وسرعان ما غاب في سبات عميق.

••••

ها هم يجتمعون في المقر، أصدقاء جمعت بينهم أكثر من رابطة أحسن بتفتح يملأ صدره، ويشرح نفسه، قال يخاطبهم:

- الوقت مناسب، علينا أن نذهب لزيارة الرفيق أبو سليمان، ونقدم له التهاني بهذه المناسبة، ثم نمضي من هناك إلى البراديس، رحب بهم الرجل الكبير، بانت على قسمات وجهه سعادة حقيقية، دعاهم للجلوس لكنهم اعتذروا بأنهم على موعد لسهرة ليلية بالمناسبة، لكنه ألح عليهم، استجابوا لدعوته فمكثوا معه فترة شرب القهوة ثم اعتذروا ومضوا إلى المكان الذي اتفقوا أن يمضوا سهرتهم فيه، وحددوا شارع أبي نواس مهرجانًا للألوان وحركة الناس فيه غير عادية، كل شيء ينطق بالفرح، الجو بارد لكنه منعش وأصوات الغناء تملأ الآفاق، تنداح الأغاني من كل الجهات، كل شيء يذكر بالفرح إلا قلبك يا وائل، فهو هناك معها، أخذته وذهبت بعيدًا، تُرى ماذا تفعلين الآن يا قلبي؟!

رحب بهم صاحب الكازينو، إذ أنه يعرف سعد وناجي وهادي، إنهم من المترددين على جنته هذه منذ زمن بعيد، صفت الموائد

وجلس الأصدقاء متقابلين، جاءوا بصحون المزة الكثيرة وطلب كل منهم شرابه المفضل، صب وائل البيرة في قدحه ورفع كأسه قائلاً بصحة الجميع، وسنة خير وسلام للبشرية جميعًا، قال ناجي وفمه العريض مفتوح على آخره:

- إن شاء الله هذه السنة الجديدة ستكون سنة زواج بالنسبة لي.

ضحك سعد ضحكته السريعة العالية وقال:

- لن تحقق رغبتك هذه أبدًا لأنك غير مؤهل للزواج.

رد ناجي بسرعة:

- جربني يا أخي!

ضج الجميع في ضحكة كبيرة، قال صلاح من خلال ضحكته:

- لقد دخلنا في العمق، كلكم مؤهلون ورائعون.

صفق هادي عزيز طربًا وبدأ يقول سنمضي، سنمضي إلى ما نريد!

أسكته ناجي بلكزة في خاصرته إذ كان يجلس بجانبه قائلاً:

- اصمت سنمضي جميعًا وفي الوقت المناسب إلى غياهب السجون يا صديقي!

حانت التفاتة من وائل إلى صباح مهدي وجده يضحك وقد بدت لثته واضحة من خلال انفراج الشفتين ، ابتسم للمنظر ، هدأت الأصوات قليلاً، قال وائل:

- أرجو أن تسمحوا لي بالانصراف، سأكمل السهرة مع الوالدة ، إنها وحيدة فريدة كما تعلمون.

احتجوا عليه لكنهم وافقوه الرأي، قام مسلمًا ومهنئًا، ثم مضى نحو غايته. كانت الساعة تُشير إلى العاشرة والنصف ليلاً، الجو بارد، إنه يشعر بدفق الدماء قوية تجري في عروقه، فتح الباب ، لم يجد أحد، تأكد أنها هناك مع آمال، سيكمل سهرته معهم، "هذا أقل ما تفعله يا رجل".

أغلق الباب ومضى إلى بيت ماجد القريب منهم، كان ضوء الباب الخارجي يشع، وقف أمام الباب وقرع الجرس، لحظات وانفتح الباب عن جسد ماجد وهو يفتح ذراعيه مرحبًا:

- أية ريح رائعة دفعت بك إلينا؟!

ضحك وهو يقول:

- أنت رجل عسكري ولست شاعرًا.

احتضنه ودخلا معًا، وقفت آمال مشرقة الوجه ثم اندفعت إليه مرحبة، قبل رأس والدته ثم أمسك بكرم ورفعه قائلاً:

- كل عام وأنت بخير وسلام.

- كنت على ثقة من أنك ستأتي ولهذا هيأت ما تحتاج للسهرة، سأبدأ فورًا بإعداد المائدة.

انتحيا جانبًا، ثم بدءا يحتسيان البيرة ويأكلان ويتحدثان، سمع وائل ضحكات والدته، التي تشي بسعادتها ورضاها، أيقن أن حضوره جلا مما علق في ذهنها، أو على سطح مشاعرها كثيرًا من الأسى والهموم، وإنه يشاطرها الفرح بكل كيانه، يا لمعزة هذه المرأة عنده يا لحبه لها، إنها جديرة به فعلاً، تمنى لو تبقى الابتسامة مرتسمة على وجهها الطيب الحبيب، رفيقة العمر الحنون صاحبة الفضل الذي لا ينساه، عليه وعلى شقيقته، لقد ضحت بسنوات حياتها من أجلهما. قفزت آمال، أطفأت النور ثم فتحته ثانية، خاطبتهم ووجها ينضح ألقًا وسعادة:

- ها نحن ندخل سنة جديدة، كل عام وأنتم بخير.

ثم توجهت نحو والدتها، احتضنتها وقبلتها، تقدمت نحو وائل فتبادلت معه القبلات والتهنئة، التفتت إلى ماجد، همست بحنان دافق:

- كل عام وأنت بألف خير.

رد عليها بصوت هادئ مشحون بالعاطفة والحب:

- وأنت كذلك العمر المديد والصحة لخالتي الحبيبة، السعادة لأخي وائل، وأن يحقق كل أمنياته كل عام ونحن جميعًا، وبيننا كرم الحبيب بخير دائم وصحة دائمة.

في هذه الآونة كان كرم يغفو في حضن جدته ، رفعته آمال بحنان وهدوء وضعته على كتفها ثم مضت به نحو فراشه رجعت مسرعة قال وائل:

- آن الآوان لكي نمضي أنا والوالدة إلى البيت، شكرًا لكما على هذه السهرة الحلوة.

ثم وجه كلامه لوالدته بعد أن وقف، وشخص إليها بنظره:

- هيا. هل طابت لك الجلسة؟

أجابته بسرعة:

- طبعًا لا يوجد أحلى وأجمل من جلسة الأحباب.

ثم تحركت من مكانها قليلاً ، ووقفت ، قالت وهي تخطو قبلهم نحو الباب.

- تصبحون على خير.

مضى برفقتها نحو البيت ، كانت أضواء الشارع مضيئة بفعل رطوبة الجو ، والهواء يهب باردًا يلسع وجهيهما وأصوات تتناهى إلى سمعها من المنازل المجاورة دخلا الزقاق الضيق ثم توقفا أمام الباب، قالت وادته:

- نسيت مفتاح الباب في بيت أختك.

- لا عليك. هذا مفتاحي معي وغدًا ستمر عليك آمال وكرم ومعهما مفتاحك.

وضع المفتاح في الباب ثم دفعها ، انفتحت فانتشر ضوء المصباح المعلق في المدخل عليهما، خطت أمامه ولحق بها بعد أن أغلق الباب وراءه، قالت وقد التفتت إليه وصوتها ينضح حزمًا وقوة:

- في الأسبوع الأول بعد عودة راجحة سأذهب لأخطبها لك، لن تتأخر أكثر مما تأخرت، إنك ترتكب جريمة بحق نفسك وبحق الشابة التي أحبتك، إنها بمعزة آمال تمامًا.

قال مداعبًا:

- هذا تصريح خطير يأتي في الساعات الأولى من السنة الجديدة، أرجو أن يكون فأل خير لنا جميعًا.

مضى نحو غرفته يصعد درجات السلم المؤدي إليها وهو يهمس:

يبالي بعد الظالمين شكول   طوال وبين العاشقين طويل

وتذكر جارته التي تنظر إليه بجرأة وتراقبه من مكان وقفتها في البلكون المقابل لغرفته، فأكمل:

يبيِّن لي البدر الذي لا أريده   ويخفين بدرًا ما إليه وصول

نهض متأخرًا من نومه، اغتسل وحلق ثم تهيأ للخروج بعد أن تناول فطوره، قالت له:

- هذا يوم إجازة، لماذا لا نقضيه في البيت لتستعيد شيئًا من راحتك التي تبعثرها في الشوارع والمقاهي؟

- سأذهب لملاقاة حمدي ومن هناك سأمر على أحد الأصدقاء.

قاطعته:

- ومتى ستعود إن شاء الله؟

- مساء. مساء بعد العاشرة أو قبلها.

ابتسمت بعد أن شملته بنظرة حب وإعجاب:

- ليحرسك الله. مع السلامة.

هفا إليها، قبلها في جبينها ثم اتجه نحو الباب، عبر جسر الأحرار، انحرف إلى يمين شارع الرشيد، وصل مقهى البرازيلية، اشتهى فنجان قهوة مع سيجارة يدخنها على راحته، جلس في ركن قصي قبالة الباب، جاءه العامل بالقهوة، كان يرى بخارها يتصاعد ورائحتها تفعم أنفه، رشف من الكوب رشفة كبيرة ثم أشعل سيجارته، يشعر بسعادة لا يدري سرها ولا مبعثها، أهو رضى الوالدة عليه أم سهرة الأمس الحلوة وما تركته من مشاعر رائعة في تلافيف قلبه، أم أنها مشاعر مؤقتة لا تلبث أن تزول عندما تزحف نحوها غيوم الأسى المتجمعة في خلايا عقله المتعب أبدًا، توجه نحو هاتف المقهى وطلب إبراهيم عبد الأمير، هنأه بمناسبة العام الجديد ودعاه إبراهيم لزيارته بعد الظهر.

كان بإزاء باب البيت الساعة الثانية والنصف ، ضغط جرس الباب، لحظات وسمع الباب الداخلي يفتح ثم إبراهيم عبد الأمير يتوجه نحوه مبتسمًا ، فتح الباب وهو يرحب ، دخلا معًا غرفة الاستقبال، استأذنه ثم خرج، رجع بعد وقت قصير يحمل الشاي ، وضع صينيته أمامهما ثم تبادلا بعض عبارات المجاملة، بادره إبراهيم:

- ماذا قررت، أرجو أن يكون القرار لصالحك.

ابتسم وائل ورد عليه:

- هناك من هو أحق مني بها ، لقد ناقشت نفسي آخذًا بنظر الاعتبار كل الظروف التي تحيطني ، ووجدت في المحصلة النهائية أنني لست مؤهلاً لهذه الزمالة.

تجهم وجه إبراهيم ثم انفرج بسرعة:

- كان بودي أن أكون بعمرك لأتخذ القرار الصعب ، ويؤسفني أنك ترفض فرصة قد لا يحصل عليها أحد بهذا اليسر الذي قدمت فيه إليك.

- لا أستطيع ترك والدتي وحيدة ليس لها من بعدي أحد ، هذا عامل مهم والعامل الآخر أنني مرتبط.

- علاقة عاطفية؟

هزَّ وائل رأسه خافضًا عينيه إلى أسفل:

- على كل حال هناك صراع على هذه الزمالة ، قل لي أين قضيت سهرتك؟

- في المقر ثم في البيت.

في هذه الآونة سمعا هطول المطر يأتيهما واضحًا خلال بعض فتحات الشبابيك ، كان جو الغرفة باردًا رغم وجود المدفأة النفطية، دمدم إبراهيم:

- ثمة إزعاج من الموقف الأخير الذي حصل بينك وبين عاصم، لكنني خففت الوطأة كثيرًا.

- لقد قلت ما أعتقد بصحته وحتى هذه اللحظة أو ما بعدها ، ولن أكترث أبدًا لأي موقف أو إزعاج من هذه الجهة أو تلك.

- دائمًا كنت أحترم الرأي الخاص القائم على أسس حقيقية ، ولكم عارضت قرارات عديدة وقلت رأي فيها بصراحة تامة ، أنا وأنت في هذا المجال على وفاق ولكن للعمل السياسي أصوله وتقاليده لا نستطيع أن نتجاوزها دائمًا كما تعلم ، وكنت أود أن تكون الزمالة وسفرك إلى الخارج تعويضًا عن كل ما يحيط بالنفس من آلام وأسى ، ستكون في سنوات قليلة أستاذًا في مادة من المواد ، ستعود مدرسًا في إحدى الكليات هنا أو في أي بلد عربي يتعامل مع شهادات الدول الاشتراكية ويعترف بها ، وقتئذ ستتغير كثير من المشاعر

والتوجهات والأفكار وقد تعود متزوجًا ، لا أعير العواطف أكثر مما تستحق من اهتمام!

بعد فترة صمت خاطبه ثانية:

– سيكون عملك كما هو في المقر أنت ومن معك أما بالنسبة لما كشف عنه أبو سليمان في اجتماعكم السابق كان معروفًا لدى الحزب، أما الإجازة فهناك رأي إنها لا تستحق الآن ذلك الاهتمام الذي أبداه الحزب في الأيام الأولى، الآن الأولوية لدرء الأخطاء المحدقة بالجميع ، وإيقاف إطلاق النار في حرب الشمال، والرجوع عن المطالبة بالكويت والبدء بفتح حوار مع السلطة على هذا الأساس إن استجابت لآرائنا.

قال وائل:

– لا أعتقد أنها ستستجيب، محال ذلك الرجل في واد والآخرون على اختلاف آرائهم وتوجهاتهم في واد آخر ، ويبدو أن العمل ضده قد قطع أشواطًا بعيدة.

– أنا أيضًا أعتقد بذلك لكن لا تنس أن شعار "تضامن – كفاح – تضامن" هو استراتيجية وتكتيك العمل.

– أعتقد ان هذا الشعار فقد محتواه تمامًا، لم يعد له أي تأثير لا في الشارع السياسي ولا عند السلطة، ينبغي أن تكون هناك استراتيجيات جديدة تنتج تكتيكات جديدة.

– لا أكتمك، حتى داخل الحزب الأوضاع ليست على ما يرام.

- وترجمتها هذا التخبط الذي نسبح في بحره جميعًا، أقول لك إن الحزب بحاجة إلى رؤيا جديدة من خلال قيادة جديدة وتوجهات أكثر حداثة من سابقاتها، أعرف إنهم سيتهمونني بالكثير من الأوصاف، لكنها قناعتي وأرجو أن تنقل رأيي هذا إليهم.

- وائل، لم أكن أظنك على هذا القدر الكبير من الشجاعة.

- دخلنا المعترك السياسي على أساس الإيمان بفكر واضح وأهداف واضحة، أما أن يتحول الحزب إلى خيمة تدافع عن حكم مهترئ وآيل للسقوط فإن هذا الأمر لا يحتمل ولن يقبل، أرجو المعذرة أستأذنك بالذهاب إلى صديق عزيز للسلام عليه.

قام إبراهيم معه أوصله نحو الباب، قال بود عميق:

- ستسعدني زيارتك والاجتماع بك دائمًا.

- شكرًا لمشاعرك الطيبة، وداعًا.

توجه نحو شارع الكفاح حيث مقهى ناصر في مدخل الزقاق القديم، زقاق أبي سيفين، وصله والجميع موجودن، صافحهم ثم جلس بجانب حمدي الذي طلب الشاي لهما، وضع ناصر القدمين أمامهما في الوقت الذي دخل فيه المقهى ودود، سلم بصوت عال ثم خاطب حمدي مصطفى قائلاً:

- هذا يوم التحدي ، هيا قابلني وسترى أنك لا تستطيع مواجهتي أبدًا أنا ودود المحاويلي.

ضحك حمدي ثم قال:

- اللهم أشهد أني أحب هذا الرجل وسوف أتركه يهذي خوفًا عليه من ملاقاة الأسد!

ضحك وائل، قال ودود يخاطبه:

- أسعدتك أحاديث صديقك ، والله ها أنا ذا جاهز لملاقاتك ، ناصر اجلب لنا أفضل "طاولي" عندك.

وضع ناصر وضحكته الحلوة تسبقه الطاولي على المنضدة، قال حمدي:

- اعذرني وائل ، دعني أعلم هذا المدعي درسًا في لعبة "الطاولي" لن ينساه.

واجتمع من في القهوة عليهما، انقسما إلى جهتين، جهة تشجع ودود المحاويلي، والجهة الأخرى تشجع مصطفى حمدي، نظر وائل في ساعته ، قال في نفسه "لن أذهب اليوم إلى المقر ، سأقضي بعض الوقت هنا ثم أعود إلى البيت".

كان اللعب على أشده ، ودود يهدد ويتوعد "سأجعلك تنسى العافية أيامًا طويلة يا حمدي"، يضحك بسرور وهو يمد يده إلى جيبه.

- هاك منديلي امسح به دموعك يا ودود بعد أن يسري سم الخسارة في جسدك لتبكي على نفسك وإلى الأبد.

صاح ودود:

- ناصر، وزع الشاي على الجميع لأن حمدي هو الذي سيدفع، إنه الخاسر منذ اللحظة.

ويربح حمدي الشوط الأول، ثم يربح ودود الشوط الثاني، وتبقى اللعبة الثالثة التي ستحدد الخاسر من الرابح، أبرز كل من اللاعبين مهاراته الفذة، اقتنص ودود الفرص المتاحة ليضع قطع الطاولي تحت رحمته، سد كثيرًا من المنافذ على حمدي، قاتل بشراسة وهو يعلب بهدوء، لكن انفعاله بدا عليه واضحًا، عندما بدأت اللعبة تبدو لصالح ودود رفع ودود يديه عاليًا علامة الانتصار، هنأه حمدي وهو يقول:

- هذه جولة وسوف تليها جولات كثيرة.

قام الصديقان ودعا الحاضرين ثم مضيا في طريقهما نحو الباب الشرقي أمام سينما غرناطة، توقفا، قال حمدي:

- سمعت أنه فيلم جيد، ما رأيك؟
- ادخل أنت، سأمضي إلى البيت، إنني تعب.
- هل تحتاج إلى مرافقتي؟
- كلا، تمتع بأحداث الفيلم.

افترقا عند باب السينما ، مضى وائل إلى السيارات التي تذهب إلى الصالحية عبر جسر الجمهورية ، وبقى حمدي يحدق بخطوات صديقه الأثير وهو يبتعد عنه ويختفي رويدًا رويدًا.

خاطبته والدته فرحة:

- عليّ أن أزغرد، ها أنت تأتي إلى البيت مبكرًا.

رد وهو يضحك:

- حسب الظروف ، والله إنني لا أمل رفقتك لكن الأصدقاء والعلاقات.

ترامت بعض الأصوات من المطبخ، تساءل:

- من هنا؟

خفضت الوالدة صوتها:

- إنها إيمان بنت جارتنا أم أحمد ، تأتي دائمًا لتساعدني أو تجلس معي، إنها في الصف المنتهي من معهد المعلمين قسم الرياضيات، مهذبة وحلوة.

- مساء الخير أستاذ وائل.

رد وقد فوجئ:

- تفضل الشاي.

كانت تحمل صينية الشاي، قال بابتسامة حبيبة:

- اليوم شربت شاي أكثر مما شربت طيلة حياتي.

حدجته أمه بنظرة حادة:

- أنا التي أوصيتها بعمل الشاي لنا، قبل أن تأتي أنت.

قال:

- الشكر لها، ها هو استكان الشاي قررت أن أشربه لأضيفه إلى ما سبق أن شربت.

جلس جوار والدته، أرسل بصره إليها، كانت ذات وجه مدور وجميل، العينان حادتان وسوداوان، الشفتان مليئتان والفم فيه اتساع، لكنه ملائم تمامًا لتفاصيل الوجه الأخرى، صدرها مكتنز وكبير، الجسم مليء لكنها تبدو رشيقة بسبب خصرها النحيف، تساءل:

- علمت أنك في معهد المعلمين وفي قسم الرياضيات.

قالت وعيناها تأكلانه:

- أحب الرياضيات منذ الدراسة الابتدائية، وأحب دراستها وتدريسها.

- هذا بديع.

- أنت مدرسة لغة عربية؟

هز رأسه بالإيجاب:

- أحتاج إلى بعض الكتب أو بعض الدراسات عن شعراء ندرسهم في المنهج.

- ستكون مكتبتي في خدمتك.

قالت والدته تخاطبها:

- حياته كلها مطالعة والكتب لديه أثمن ما في وجوده.

- إنه أديب.

- من أين عرفت؟

- أقرأ بعض الصحف وأرى اسمك مكتوبًا هنا أو هناك.

اعتذر ثم مضى نحو غرفته، دخلها، وجدها نظيفة مرتبة، هناك تغيير في وضع أثاثها ، بقى السرير ملاصقًا للشباك ، لكن الكرسيين وضعا في الجهة المقابلة للسرير ، أما خزان الملابس فقد وضع في المكان المواجه لباب الغرفة، المنضدة القريبة من السرير كتبها ووضع الراديو بعناية على الجهة القريبة من السرير ليكون بتناول اليد.

فتح شباك الغرفة لكن الستارة بقيت بين الضلفتين يحركهما الهواء الذي ينساب إلى الغرفة من هذا المكان الواسع ابتسم وائل وقد حدس كل شيء ، صوت التليفزيون يصله بوضوح ، إنها حلقة جديدة من حلقات برنامج "تحت موس الحلاق" الذي تحبه والدته، ما هذا؟ وجدها تقف عند باب الغرفة، قالت:

- يريدون منا شرحًا لمعلقة زهير وعمر بن كلثوم.

- سأعطيك الزوزني، سيفيدك في هذا المجال.

- لا أحب كثيرًا هذه المواضيع.

شملهما بنظرة سريعة فاحصة، سألها:

- هل أنت رياضية؟

ابتسمت وأجابت:

- أنا عضوة فريق المعهد في كرة الطائرة والركض.

- واضح تمامًا.

- ما هو الواضح؟

تساءلت بفرح.

- يعني أن قوامك يدل على ذلك.

ثم أردف:

- تعالي معي، إن المكتبة في الصالة، سأعطيك الكتاب وحاولي أن تستفيدي منه.

نزلا معًا، كانت والدته تقهقه سعيدة وهي تشاهد ما يجرى على شاشة التليفزيون، التفتت إليهما ثم رجعت ثانية تتابع المشاهد، وقفت إلى جانبه وهو يتابع العناوين، كانت المكتبة تضم عددًا كبيرًا من الكتب والدراسات ودواوين السفر، أحس بكتفها يمس كتفه، استفزت هذه الحركة مشاعره فانطلقت كالمارد لكنه حاول أن يسيطر على ما اعتراه، وجد الكتاب فسحبه من بين مجموعة الكتب التي يحيطه، أخرجه وبدأ يتصفح أوراقه، قال:

- سيفيدك في الموضوع الذي تريدين الكتابة عنه.

حدقت في عينيه ، رأى أغوارًا سحيقة تدعوه إليها ، ارتجفت شفتيها الممتلئة السفلى وهي تهمس:

- ألا أعجبك؟! منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها كنت على الدوام. يعني. لا أعرف ما أقول.

ضحك وخاطبها:

- إيمان، هذا الكتاب استفيدي منه وامضِ إلى بيتك.

- سأراك غدًا.

- لا أعتقد، أنا مشغول.

قالت بتصميم:

- سأراك غدًا وبعد غد وخلال كل الأيام القادمة.

أخذت الكتاب ثم مضت لتجلس قليلاً، وبعدها تستأذن من والدته لتغادر إلى بيتها ، صعد ثانية إلى غرفته ، أبدل ملابسه ونزل بمنامته ملتفًا بروب بروميل الثمين، يتشاغل بالنظر إلى شاشة التليفزيون وأفكاره تحوم حول الفتاة التي هاجمته بشجاعة تحسد عليها. قالت والدته:

- إنسانة ممتازة يا وائل، إنها وحيدة أمها، ترك والدها أمها وتزوج من ثانية لكنه ترك لهما البيت المقابل لبيتنا ويرسل لهما ما يكفيهما، إنها ووالدتها تساعداني في كثير من أشغال البيت.

قال وهو ينظر نحو شاشة التليفزيون:

- واضح واضح.

- ساعدها فيما تحتاج إليه في دراستها، أما أنا فلن أقصر معها أو مع والدتها.

- أنتِ أطيب أم وامرأة في هذا العالم الغريب يا أمي.

- إن شاء الله أفرح بك يا وائل بعد رجوع راجحة ، وأرى أولادك.

- وأولاد أولادي.

- لا. لا يا وائل، لا أريد أن أصل إلى أرذل العمر ، أريد أن أمضي دون أن أكلفك وأختك عناء أو مشقة ، أمضي وأنا قوية.

- العمر المديد والصحة الدائمة لك أيتها العزيزة.

- سأحضر عشاء لنا، اليوم نأكل سويًا.

- كما تشائين.

تناولا طعامهما ، أمضيا وقتًا بعد ذلك ليس طويلاً. قام مستأذنًا وهو يقول:

- رجعنا للدوام والحياة التي تبدأ بجرس وتنتهي بجرس ، لا أحب مهنتي هذه.

- اختر ما يريحك وأنا معك.

مضى نحو السلم يرتقيه داخلاً غرفته ، منطرحًا يحدق بالفراغ ويسمع طنين صمت يجتاح سمعه، وعيناه ترفان ثم يتلاشى كل هذا بهدوء، ويغط في نوم.

(١٣)

توقف أمام مقهى إبراهيم ، كانت الساعة تُشير إلى الرابعة عصرًا ، وجد نعمة محسن أمامه يشرب الشاي ، طلب شايًا له ، خاطبه نعمة:

- اشرب شايك على عجل فالجميع بانتظارك!

وهو يحتسي شايه اللذيذ تساءل:

- لماذا، ما الأمر؟

- عبد الحميد صمد توفي صباح اليوم ، والفاتحة في جامع الفضل!

صمت وائل وتوقف عن شرب شايه ، داخله شعور مرير بأن الحياة مهزلة وأن العمر مهما طال بالإنسان ما هو إلا سراب ، وأن الحرص على هذه الدنيا نوع من اللاجدوى ، هذا الرجل عزيز على نفسي لأنه مخلص مع نفسه وقناعاته، مرّ به شريط لقائه بالرجل أول مرة في أواخر شهر تموز، أكيد أنه كان يعاني مما يحيط به ، إلا أنه كان ذا قناعات وآراء تستوقف محدثه مهما كان الاعتراض على تلك الآراء، أو عليه.

رفع نعمة صوته كأنه ينبه وائل، مما أحاط به من سكون وألم واضحين:

- ماذا، أرى أمامي دراما مثيرة؟!

قاطعه وائل:

- لا نعمة. الرجل يستحق أن يحزن عليه ، خصوصًا أولئك الذين يعرفونه، ولقد عرفته جيدًا وقبلكم بفترة، كانت آراؤه حادة ولكنها مقنعة.

دخلا غرفة الاستعلامات، حياهم بوجه بدا حزينًا:

- كنا بانتظارك ، سنذهب إلى جامع الفضل حيث مراسيم الفاتحة.

- أخبرني نعمة يا سعد، من سيبقى هنا؟

أجاب نعمة:

- أنا سأبقى، بالمناسبة. متى تعودون؟

أجاب وائل:

- سنعود إلى المطبعة والذي يريد أن يرجع للمقر فهو حر.

خرجوا تباعًا، وائل وسعد وأحمد سردار وناجي وصبيح محمود ، استأجروا سيارة مضت بهم نحو منطقة الفضل، توجهوا نحو الجامع، كان صوت المقرئ قويًا واضحًا من خلال مكبر الصوت الذي علق على أعلى المنارة، دخلوا مرة واحدة، وقفوا يقرأون الفاتحة ثم جلسوا في جهة واحدة من القاعة الكبيرة، رفع أبو سليمان يده مسلمًا فردوا عليه برفع أيديهم ، كان بعيدًا عنهم بعض الشيء ، جاءهم رجل يحمل دلة قهوة ، وزع عليهم في

فناجين صغيرة ذلك السائل البني الغامق ذا المرارة المحببة، ثم قدمت السجائر، أشار أبو سليمان لوائل فتوجه إليه، قال له "انتظروني سنخرج سويًا"، هز وائل رأسه بالإيجاب ثم مضى إلى مجلسه، كانت أعداد متتالية تدخل المسجد، وأعداد أخرى تخرج منه، مضت الدقائق ثقيلة بطيئة، رأوا الرجل الكبير ينهض واقفًا ثم يتمتم بكلمات ويحرك يده إلى رأسه ثم إلى جانبي صدره، صاح أحمد سردار "الفاتحة".

رفعوا أيديهم أمام وجوههم، أكملوا قراءة سورة الفاتحة ثم قاموا للحاق بالرجل، صافحوه جميعًا، قال بتأثر واضح:

- كان عزيزًا عليّ، رافقني في أغلب سنوات العمر ومرّ بكل السجون التي استضافتنا مع غيرنا وحتى لحظاته الأخيرة بقي مخلصًا للعلاقة، إنه خسارة حقيقية بالنسبة لي، بل لنا جميعًا، دعونا نذهب إلى المقر فأنا أشعر بكآبة أريد أن أمضي بعض الوقت معكم.

وصلوا المقر حوالي السادسة، كان ثمة برد مصحوب بهواء، يسرع تارة ويبطئ أخرى، دخلوا غرفته الواسعة، أشعلت المدفأة ثم ران صمت كثيف على الجالسين.

كسر السكون المحيط بهم صوت أبي سليمان:

- لقد زارني قبل يومين أحد الرفاق في جماعة اتحاد الشعب ودار حديث بيننا أحاول أن أطرحه بينكم كي تكونوا على

بينة مما يجرى وما يقال، قلت له لقد دعوناكم كي تشاركوا في العمل ولكي تكون الإجازة حالة مشتركة لكل منا سنعمل على أن تكون حزبًا واحدًا مع الأخذ بنظر الاعتبار أنني وبعض الرفاق في لجنتنا المركزية سيكونون ضمن القيادة الجديدة.

قاطعني بكبرياء زائفة:

- لسنا بحاجة لهذه الإجازة، إن الجماهير هي التي تجيز هذا الحزب أو ذاك.

أجبته:

- لم تتغيروا ولن تتغيروا، هذه الكلمات الطنانة لم يعد لها وجود في قواميس السياسة وخصوصًا في الدول النامية، أية جماهير تلك التي تدّعون انها ستوصلكم إلى ما تتخيلون من اهداف يا أخي، آن الآوان لكي تنتبهوا لما يحيط بكم وبنا، أنتم ساهون عن كل شيء، إن سياسة النفي للآخر أو للأخرين لم يعد يجدي ممارستها، بعد كل هذه التجارب ها هي المظاهرات تعم البلاد، ها هي الحرب تطحن الناس، ها هي تسلطات السلطة في هذا المجال أو ذاك وعلى المستويين الداخلي والخارجي، ما الشيء الذي غيرتموه، ما الشيء الذي حاولتم أن تجعلوه لصالح الجماهير التي تتحدثون عنها كثيرًا، لسوف ترون وفي وقت لا أعتقد أنه سيطول أنكم

بإزاء كارثة ستدمركم، بل إنها ستحيق بنا جميعًا، لماذا لا تنتبهون لما يقال لكم، سوف تجدون أن أقواتكم ليست أكثر من شعارات لا تغني ولا تسمن، ثق أن الرفاق الذين يعملون معي أكثر نضجًا وثقافة ومعرفة بمتغيرات الواقع السياسي الداخلي والخارجي منكم، وكنت أتمنى أن ألتقي في مطالع الشباب بمثل هذه العينة الرائعة ولكن ها هو العمر يدخل مراحله الأخيرة، قلت لنفعل شيئًا لنا ولغيرنا، ولكن التعامل معكم صعب، بل مستحيل وستعلمكم الأيام القادمة الكثير حين لا ينفعكم ندم لحظتئذ، قلت له قبل أن يخرج قل لجماعتكم إن الوقت ضيق، ومع هذا فهناك فسحة أخرى للعودة ثانية نحو الموضوعية والتعقل.

صمت لحظات، أخرج سيجارته، نفث دخانها، كان صوته متعبًا وراضيًا، مسح جبهته بمنديله وزع نظراته بين الجالسين، ارتفع الصوت المتعب:

- أردت أن أطلعكم على ما يجرى، لو أردت التحدث حول سياسات الجماعة، منذ التأسيس وحتى اليوم، لكان علينا أن نبقي أيامًا عديدة نتحدث في هذا المجال، ولكن هذا هو الناتج النهائي لسياستهم لا يستطيعون أن يروا متغيرات العالم مازالوا في نطاق الأخيلة التي تعودوا عليها واستمرأوا العمل من خلالها.

قال صلاح:

- أقترح توجيه مذكرة باسمكم مباشرة إليهم كما تكون وثيقة للتاريخ ولهم ولنا أيضًا.

وائل يرفع ده ويوجه كلامه للجميع لكن عينيه تحدقان في وجه صلاح:

- أؤيد الاقتراح كما اقترح تسمية لجنة من ثلاثة تبدأ بكتابة الوثيقة، وبعد إكمالها يطلع عليها الرفيق أبو سليمان لتأخذ شكلها النهائي ومن ثم نبعثها إليهم.

ابتسم أبو سليمان وبانت أسارير فرح على وجهه:

- إذا وافق بقية الرفاق فليس ثمة مانع أبدًا أما عن اللجنة فهي من وائل وسعد وصلاح صاحب الاقتراح.

رفع الباقون أيديهم علاقة الموافقة استأذن الرجل الكبير بعد ذلك بقليل، ثم ودعوه إلى الباب باستثناء سعد ووائل، فإنهما رافقاه حتى الشارع ليمضي من هناك بسيارة أجرة نحو بيته قال سعد ضاحكًا:

- لنذهب إلى غرفتي كي نرتاح ونسمع شيئًا من الموسيقى سأسمعك حلاق أشبيلية.

- دعنا الآن من هذا لنتوجه إلى المطبعة، هل تتصور أننا نأمل في فرصة راحة حقيقية، يقول ناظم حكمت يالحياة المنفى من مهنة شاقة، أحذف كلمة المنفى لينطبق باقي الجملة

على حياتنا، فعلا دائمًا، أهتف ياللحياة من مهنة شاقة، سعد يبدو لي أنك سعيد ألست على حق؟

رد سعد وهو يضع غليونه في فمه ويحاول أن يشعل التبغ:

- سعيد، هذه أكذوبة لا أدعيها، لكني عودت نفسي على عدم الاكتراث أعتقد أن الإنسان عندما يصل لقناعة من هذا النوع ، سيجد أن الحياة أكذوبة، وأنك في غفلة من أمورك كلها، من منا سأل نفسه عن قناعاته وتوجهاته؟ من منا راض عن نفسه وعن عمله؟ من منا لا يحمل صورة أو صورًا عن الآخرين، لو عرفوها واطلعوا عليها لبصقوا في وجهه أو لعلهم يقتلونه، من منا على علم برأي الآخرين فيه، يا وائل أنا أفكر إذن فأنا مغفل!

وارتفعت ضحكة في وسط الشارع بحيث أن بعض المارين بهم التفتوا إليه.

- أنا مستغرب!

قال وائل وهو يضحك.

تساءل سعد:

- لماذا؟

- لأنك حتى هذا الوقت لم تقل إنك جائع!

- والله إنني جائع وأملأ معدتي بهذا الدخان اللعين عساها تهدأ.

- سأدعوك على أكلة خفيفة مكونة من اللبن والكيك من المحل المجاور لسينما روكسي.

- أشكرك سلفًا، فلنسرع إذن!

أكملا طعامهما ثم أسرعا نحو المطبعة القريبة.

كانت الساعة تُشير إلى الحادية عشرة عندما فتح الباب ودلف إلى الداخل، لا يدري لماذا لم يتذكر طيلة ساعات اليوم راجحة أو إيمان.

- مساء الخير سيدتي العظيمة.

قالها بلهجة من يمثل على مسرح، أجابته:

- والله لولا التليفزيون وهذه الفتاة الحلوة إيمان لانفجرت قبل قليل غادرتني وهي تسألني: "هل الأستاذ وائل دائمًا يتأخر خارج البيت؟" فأجبتها نعم دائمًا وأبدًا، آه أين أنت يا راجحة كي تعيني خالتك على هذا الرجل العنيد!

نغَّم صوته:

- مساء الخير يا أمي ويا عزيزتي ويا عدوة اللصوص!

- اسمع يبدو لي أن الفتاة مشغولة بك!

تساءل:

- أية فتاة؟!

حدقت في وجهه ثم همست:

- إيمان.

- لماذا؟

- وهل تسألني لماذا؟ إن بعض الظن إثم.

قال في نفسه ليس ظنًا إنه الواقع، هناك رغبة أقمعها كل فكرت بها أو بقضاء بعض الأوقات معها.

- إنها فتاة جادة، ستكون بعد أشهر قليلة زميلة لنا.

- إنها تعجبني يا وائل ذكية ونشطة ومحدثة لبقة ووالدتها إنسانة طيبة جدًا.

- أنتِ الطيبة، لهذا يحيط بك الطيبون أمثالي والطيبات أمثالها.

أدارت وجهها نحو شاشة التليفزيون وهي تقول:

- لا أكاد ألتقيك في اليوم الواحد ساعة، وتدعي أنك تحيطني برعياتك؟! اخجل قليلاً يا ولد!

- ما أخبار آمال؟

- بخير. بخير. طعامك في الثلاجة سأذهب لأنام.

- تصبحين على خير، لا تفكري بي، أستطيع أن أخدم نفسي.

وجد غرفته نظيفة مرتبة، وملابسه في الزاوية المعدة لها، كانت الغرفة باردة، لبس منامته على عجل واندس في فراشه وهو يحدس أشياء قد تقع بينه وبين إيمان خلال الأيام القليلة القادمة.

(١٤)

كانت الامتحانات الشفوية قد بدأت فلم يبق على اختبارات نصف السنة إلا أيام قليلة ، بدأوا بإعداد الأسئلة والدفاتر ، وتكوين اللجان، ثم تحويل درجات النصف الأول من السنة إلى السجلات العامة ، سمع الزملاء يتحدثون عن المواجهات في الكليات والمعاهد بين الطلبة، وبين الطلبة والشرطة، وإن الاضطرابات مستمرة في أغلب الكليات والمعاهد، بل وحتى بعض الثانويات، قال لوالدته:

- أرجو أن يكون غداء دسمًا فالجو بارد، وهذا هو أوان هذه الأكلات.

- اغتسل وستجد ما يرضيك.

توجه نحو الحمام، اغتسل وأبقى الماء الدافئ يصب على رأسه وأنحاء جسده، شعر بالراحة تسري في كيانه، عندما جلس إلى مائدة الطعام وجد فعلاً ما يسره، أكل بشهية وشرب شايه ثم دخن سيجارة وتوجه إلى غرفته، من خلف الستارة التي تغطي كامل الشباك رأى شبحًا، ما أن أزاح الستارة عن الشباك حتى فوجئ بها تقف في البلكون المقابل لغرفته، رفع يده محييًا ، رآها تبتسم ثم غابت داخل الغرفة، أرجع الستارة إلى مكانها

وانطرح على الفراش ، سمع جرس الباب يدق وبعدها صوت والدته مرحبًا:

- هالو بنيتي إيمان ، تفضلي. هل تغديتِ؟

- نعم نعم. قلت أمر عليك لعلك بحاجة إلي؟

ضحكت أم وائل كاشفة عن أسنان سليمة قائلة:

- لا أريد أن أتعبك هيا لنشرب الشاي سويًا.

كان يقرأ في صحيفة يومية لكن تفكيره مشتت ما بين البدء بكتابة مسودة المذكرة أو الذهاب إلى المقر ، أو. هذه الفتاة بدأت تأخذ جزء من تفكيره واهتمامه ، عجيب أمر هذه الدنيا ، ليس لي اهتمام بأي شيء بودي أن أرحل إلى أصقاع بعيدة إلى جزر لم تطأها قدم إنسان قبلي ، هناك التوحد مع الذات حيث تتجرد النفس من كل ما يعيق سعادتها وحريتها ، عليك أن تعترف أن هذه الفتاة الرائقة استطاعت أن تستأثر بجزء من اهتمامك اعترف بالحقيقة ولا تخجل ، لقد أنستك خيال البعيدة القريبة ، تلك التي مضت مثخنة بآلامها وحزنها وعليك أن تكون صريحًا مع نفسك لتعترف أنك السبب الأول والمهم في هذه الآلآم والمستقبل كيف يبدو لك ، لا جواب سوى ذلك الشعور بالخوف من ذلك الذي يسمونه مستقبل. قام ليبدل ملابسه ويتهيأ لمغادرة البيت.

قالت والدته مبتسمة:

- هذه الليلة أنا وأنت سنكون عند بيت أختك. إنها تقيم حفل صغير بمناسبة الترقية التي حصل عليها ابن خالتك.

- ولماذا الآن. لقد مضى أكثر من أسبوعين على تاريخ ٦ كانون الثاني!

- سألتها وقالت عندما يستكمل قيافته العسكرية ثم ليصور نفسه وهو برتبة نقيب، وقالت إنه سيقدم على الدراسة في كلية الأركان.

- سأحاول أن أحضر هذه الاحتفالية، إلى اللقاء.

- لا تتغير أبدًا. هذا أنت لا تعرف ليلك من نهارك ولا نهارك من ليلك، خذ معطفك معك فالجو بارد وقد تمطر.

مضى إلى منطقة الفضل، دخل المسجد، فوجئ بوجود يوسف عبد الحسين، جلس إلى جانبه وهو يسأله عن وضعه وصحته، قال الرجل ووجهه يقطر كآبة وحزنًا:

- مازلت أحمل هموم الملايين وأسير بها إلى أمام.

ابتسم وائل في سره، كاد يسأله ومن حملك هذه المسؤولية؟!

- منذ متى تعرف الأستاذ عبد الحميد صمد؟

- أوه. إنه رفيق درب سرناه معًا. وها هو يسقط قبلي ومازال الطريق بحاجة إلى السائرين فيه!

ساد صمت قصير ، همس في أعماقه: "الرجل يهرف بما لا يعرف، أؤكد أنه على وشك الجنون أو أنه جن فعلاً".

كان سعد وناجي ونعمة حسن قد دخلوا المكان توجهوا للجلوس بجانب وائل، قرأوا سورة الفاتحة ثم بدأوا يدخنون سجائرهم، عندما وصلوا إلى المقر كانت الساعة قد تجاوزت السادسة وكان الظلام والبرد والمطر قد غلف الأجواء بغلالة حزينة تساءل وائل وهم يجلسون:

- هل كتبتم شيئًا عن المذكرة التي اتفقنا على كتابتها.

رد سعد وقد أخرج غليونه وعلبة التبغ ليبدأ بتلويث الأجواء على رأي صلاح المدفعي:

- كلا لم أكتب شيئًا. في الحقيقة لقد اعتمدت عليك يا وائل.

رد صلاح:

- كتبت بعض الملاحظات آخذا بنظر الاعتبار ما ورد من نقاط مهمة في كلمة أبو سليمان.

قال وائل:

- قبل أن نذهب إلى المطبعة أقترح أن نشترك في كتابة المذكرة أو مسودتها ريثما نرسلها إلى أبو سليمان كي يضيف ملاحظاته إليها، ثم نكتبها بشكلها النهائي.

اجتمعوا في غرفة الاجتماعات وبدأوا العمل انتهوا من كتابتها، بعد التداول في الأمور والنقاط المطلوب مناقشتها، طلب أحمد

سردار بإيصالها إلى الرجل الكبير ، وصلوا المطبعة والساعة تتجاوز العاشرة، كان البرد قارسًا، والرذاذ المطري يهوي على الوجوه والشوارع شبه فارغة، تساءل سعد بصوت عميق لم يسمعه منه وائل سابقًا:

- هل نحن فعلاً نبني عالمًا جديدًا؟!

قال وائل:

- إذا كانت الاشتراكية هي أمل الناس جميعًا فلماذا لا يساهم هؤلاء الناس جميعًا في هذا البناء.

التفت سعد وقال بوجوم:

- أنت خطير يا وائل.

- لا تقل هذا يا سعد سوى إننا لم نتعود أن نقول آراءنا بصراحة، هذا كل شيء.

ثم ضحك وأكمل:

- أنت جائع بالتأكيد يا سيدي ستأكل ما تريد على حساب أخيك وائل.

- اللبن الزبادي مع الكيك غذاء رائع في ليل بارد وقلب خاو!

- سعد قبل كل شيء، هل أنت بحاجة إلى مال؟

- سأقول لك في الوقت المناسب، لدي الآن ما يكفي ليومين أو ثلاثة.

مد وائل يده إلى جيبه، أخرج مبلغًا من المال دسه في جيب سترة سعد وهو يعتذر:

- لن أنسى لك ما حييت كل اللحظات الحلوة التي قضيناها ومازلنا نقضيها معًا. هذا مما يخفف الكثير من مأساتنا.

أصر وائل على أكلة كباب في مطعم قريب مع شاي جيد، توجها بعد ذلك إلى المطبعة، واجهته والدته بوجه مكفهر ثم أمطرته بسيل من الأسئلة وخلصت إلى أن الجميع من حقهم أن يعاتبوه وأن يغضبوا منه.

لم يشعر برغبة في الكلام، صعد إلى غرفته، بدل ملابسه ثم أغلق المصباح وهو يردد "لا فائدة من كل شيء، لا فائدة". وهو يتناول إفطاره سألته والدته:

- هل ستمر على بيت ماجد؟

- نعم حالاً سأمر.

- سأذهب اليوم لأتسلم إيجار البيت ولزيارة جيران العمر، قد أعود بعد الظهر.

قال يغيظها:

- لسنا مثل الآخرين نحاسب على الصغيرة والكبيرة.

قالت وهي تبتسم:

- آه منك. آه

(١٥)

استقبله ماجد بالباب وهو ينتظر السيارة العسكرية التي تقله إلى مكان عمله، تمنى له كل تقدم وكل موقع مهم، ثم اعتذر له عن تأخره ليلة أمس، قدمت له آمال الشاي، قال وهو يكمل شربه:

- تأخرت، إنها أواخر أيام الامتحانات، كنت أود أن أرى كرم لكنه نائم بالتأكيد، ماجد كيف ترى الأمور؟

- سيئة جدًا جدًا، يقولون بصراحة إنهم قادمون.

- سلامًا.

رفع ماجد يده مودعًا.

اتجه بعد انتهاء الدوام إلى مقهى ناصر، سأله بعد السلام عن حمدي، رد عليه الرجل إنه سافر يوم أمس بعد أن أنهى امتحاناته مع بعض الزملاء إلى العمارة، قال إنه سيبقى ثلاثة أيام ويعود ثانية، ودعه ورجع إلى البيت، كانت الساعة الواحدة والنصف عندما فتح الباب ودخل، مضى إلى المطبخ، أخرج فاكهة وبدأ يأكل، كان الصمت يحيط به، تذكر حضور الوالدة فهفت روحه إليها، في هذه الأثناء سمع طرقًا على الباب، نهض بتثاقل وفوجئ بإيمان تقف مأخوذة...

- مرحبًا أستاذ وائل.

- أهلاً أهلاً إيمان.

كانت عيناه بالوجه الذي يتفجر حلاوة وشباب، وقامتها الرائعة بملابسها الملائمة لها تمامًا، البلوزة السماوية والتنورة العميقة الزرقة، تنبه إلى أن وقفتها طالت، قال بتردد:

- آسف. الوالدة غير موجودة.

هزت رأسها وهي تجيب:

- أعرف ذلك. قالت لي قبل أن تخرج أن ألاحظ البيت. وها أنا ألاحظه!

قالت جملتها الأخيرة بابتسامة عذبة ساحرة، تقدمت فأفسح لها المجال للدخول، جلست على كرسي قريب، أغلق الباب وراءه ثم جلس قبالتها، سألته:

- هل أعد لك بعض الشاي؟

- لا أريد أن أتعبك.

قامت مسرعة إلى المطبخ وعادت بعد دقائق بالشاي، قدمت له قدحه وبدأت تحرك السكر الذي يركد أسفل القدح، قال في نفسه: "يا لها من جريئة".

- أستاذ وائل لم أكمل كتابة التقرير عن المعلقات، أرجو أن تساعدني في كتابته.

- سيكون بين يديك بعد غد.

- هل سمعت بما يجري في الكليات والمعاهد؟

- نعم سمعت.

- ما رأيم في كل ما يجرى؟
- كنت أريد أن أسألك نفس السؤال لكنك سبقتني.
- أنا لا أحب العنف، بودي أن تعيش الناس في سلام دائم.
- هذه دعوة جميلة ولكنها لا تكفي، ها أنتِ ترين أن الحياة تتحول إلى مأساة في أكثر من بلد في العالم.
- لا أدري كيف تنتهي هذه الأشياء، أظن أن هناك من يعمل لأجل الناس.
- مثل من؟
- أنا أحب جمال عبد الناصر كزعيم وإنسان، أرى أنه يعمل لصالح مصر والعرب.

ثم بعد فترة صمت:

- أنت تشبه ذلك الرجل.

ضحك ضحكة عالية منفسًا عن ضيقه، أكملت:

- لولا أنك تحلق شاربك لكنت الشبيه له، الجسد هذا وشعرك وابتسامتك.
- أشكرك على هذا الثناء غير المباشر.

فاجأته:

- من هذه التي تضع صورتها أمام سرير نومك؟

حدق في وجهها برهة، أجاب بصوت خافت:

- إنها صورة تشبه إلى حد بعيد شكل المرأة التي أحب.

- أهي راجحة؟

- ها أنت تعرفين كل شيء، لقد استطعت أن تستدرجي الوالدة وأن تتعرفي إلى الأحوال جيدًا.

قامت لترفع قدح الشاي من أمامه، امتلأ برائحة الشباب الذي احاطه، قالت ووجهها قريب من وجهه:

- هل تريد قدحًا آخر؟

- أنتِ تعذبينني!

- بل أنت، أنت أيها الظالم، كنت أراقبك وأنت تخرج من البيت وأنت تعود حتى في أخريات الليل، أقف بالساعات في البلكون أتدثر بمعطفي وأنت لا تشعر بي.

- آسف لم أكن أقصد إيذاء إنسانة رقيقة، أنت رقيقة ورائعة.

وقف دون أن يدري، كانت أنفاسها الحارة تلسع وجهه، انتصبت أمامه هي الأخرى، تساءلت:

- لماذا لا تشعر بي. ما الذي لا يعجبك بي؟

- كل شيء رائع فيك. أرجوك ابتعدي.

التصقت به ثم قربت فمها من فمه، راحا في غيبوبة كاملة، حين أطلقت سراحه قالت له مبتسمة:

- هل تستطيع أن تتجاهلني بعد الآن؟

هز رأسه نفيًا.

- والآن لقد تأخرت. وداعًا.

خرجت بذات الهدوء الذي خيم عيه بعد عودتها إلى بيتها، كانت دماؤه تعربد في عروقه، غسل وجهه ثم جلس يدخن سيجارة، قال في نفسه: "هذا أوانك أيتها اللطيفة السحرية". اندفع خارج البيت، كان يحس بالحاجة إلى هواء جديد يملأ رئتيه وكيانه، عبر جسر الأحرار ببطء، كان الهواء يلسع وجهه إلا أنه يزيده انتعاشاً. قطع شارع الرشيد مشيًا نحو الباب الشرقي، توقف عند مقهى إبراهيم شرب شايه ثم مضى نحو المقر، كان الوقت مبكرًا بعض الشيء إلا أنه وجد سعد حكمت أمامه، هتف من أعماقه:

- أجمل وأحلى الصدف أن أجدك أمامي، هيا أنا جائع.

ضحك سعد وقال:

- وكذلك أنا!

- ما رأيك بالقوزي الشهير في مطعم الشباب؟

- هذه الأكلة أمنية يا وائل.

- إذن سأحقق لك هذه الأمنية هيا.

عندما عادا إلى المقر ثانية، كان هناك كل من ناجي وهادي ونعمة ثم أطل عليهم صلاح، بعد ذلك دخل أحمد سردار، وما أن جلس حتى أخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة، سأله صلاح:

- هل أوصلت المذكرة؟

- طبعًا طبعًا. وأعتقد أنه سيأتي اليوم.

رد صلاح:

- هذا حسن، سنناقش، أو لماذا نناقش؟ سنرى فقط الإضافات ثم يكلف أي رفيق بإيصالها!

عندما اجتمعوا بالرجل الكبير قال لهم:

- أضفت بعض الجمل لمذكرتكم، وأرى أن الرفيق صلاح سيوصلها.

هز رأسه بالإيجاب ثم استطرد:

- علمت أن فرعنا في البصرة قد أغلق، وكذلك في الناصرية والحلة.

تساءل سعد:

- هل هي حملة ضد المقرات مقصودة؟

رد الرجل:

- لا لا. إنما لا توجد الإمكانات المادية التي تزودهم بها، هناك الإيجار والكهرباء والماء والمصاريف الأخرى.

تساءل ناجي تركي:

- إذن ما العمل؟

- نحن أسرى واقع، أنتم أعلم الناس بتفاصيله.

ران صمت ثقيل على الجو الذي يحيطهم، قام الرجل متثاقلاً، رفع يده إشارة للوداع، مضى باتجاه الشارع، لحق به كل من وائل وسعد، قال لهم:

- هكذا تمضي الأيام، لو كنا سلكنا غير هذا السلوك المبدئي لرضيت عنا السلطة، ولأغدقت علينا، لكننا التزمنا بالمبادئ وهذه هي النتيجة، لا آسف على شيء.

ركب السيارة وهو يرفع يده من خلال بابها مودعًا.

ران صمت حزين على الصديقين، كسر الصمت الحزين صوت سعد:

- اليوم هو الخميس، لا أدري صدري يمتلئ بدخان يمنع علي التنفس.

- هيا إلى المطبعة نشغل أنفسنا بشيء نافع.

رد سعد:

- هيا.

أكملا عملهما، كان صوت الراديو القريب يملأ أسماعهما ببعض الأغاني، ارتفع صوت سعد يغني: "يا لذكراك التي عاشت بها روحي على الوهم سنينا".

انتبه وائل لأول مرة إلى الحزن الذي انطوى عليه صوت سعد، وهو يردد مع الأغنية المقطع الذي يحبه.

جاءهم عامل المطبعة بالصفحات مصححة، حدق الاثنان في الصفحة الأولى، همس وائل المبدأ. السابع من شباط عام ١٩٦٣، ثم وجه الكلام لسيد:

- صحيح كما قال أبو سليمان ها هي الأيام تركض مسرعة كعادتها، تسرق زهونا، وأحلى سنى حياتنا، ترى متى نلتقي غدًا.

قال سعد وهو يشد حزام معطفه:

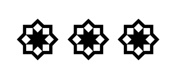
- دعها للصدفة يا وائل، كم الساعة الآن؟

- الثالثة بعد منتصف الليل.

افترق الصديقان عند الزقاق المقابل للمطبعة حيث مضى سعد باتجاه الباب الشرقي، ثم إلى البناءين، ووائل يقطع شارع الرشيد الموحش في هذا الوقت من الهزيع الأخير، تسارعت خطاه وهو يعبر جسر الأحرار كان الجو في غاية البرودة، والهواء يهب مشبعًا برطوبة النهر، وإحساس يدور في الأعماق إحساس غامض من أن شيئًا ما. حدثًا ما سيقع، كان في هذه الأثناء يفتح باب البيت ويدلف كأنه يريد أن يخفي نفسه عن هذا العالم كله.

الثالث من شباط

١٩٩٦ – ٢٠٠١ م



المؤلف في سطور

- ولد القاص الكبير حسني الناشي عام ١٩٤١ في بغداد ، وتوفي في ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٢ في السويد.

- تخرج من دار المعلمين عام ١٩٥٨ ، ثم أكمل دراسته الجامعية فحصل على بكالوريوس آداب الجامعة المستنصرية عام ١٩٧٥.

- زاول مهنة التعليم لأكثر من ثماني وعشرين عاماً

- حازت مجموعته القصصية المسماة "لحظات من الجنون" موافقة وزارة الثقافة والإرشاد في حينها عام ١٩٦٤ ولم يوافق قاصنا على نشر مجموعته لأسباب شخصية تتعلق به.

- نشر أولى قصصه القصيرة في صحيفة غير حكومية عام ١٩٦٦ بعنوان "الشارع ومصباح النيون" وكان النشر متأخرًا قياسًا لبداياته المبكرة.

- صدرت له مجموعة قصصية تحت عنوان "قوة الأشياء في شيبا" عام ٢٠٠٢ قبيل رحيلة بفترة قصيرة.

- بجهد خالص وبوفاء عظيم من زوجته تم طبع مجموعتيه القصصتين : "المعطف" عام ٢٠٠٥ ، و"كلمات في دائرة مغلقة عام ٢٠١٥، ثم روايته "خطوط مائلة" عام ٢٠١٧

- في سنوات حياته الأخيرة خانه بصره ولم تخنه بصيرته.. ظل يملي على زوجته وابنته أنسام ما يريد كتابته.. صارتا في تلك الفترة العصيبة القلقة الحزينة عينيه ويديه.. فخطتا وفيتا العهد باليد روايته التي لها معنى ومعاناة ما كان يحمل "خطوط مائلة" لأنه في تلك الفترة لم يعد يرى الأشياء التي تحيطه إلا خطوطًا واهية وبشكل مائل.



(+2) 02 27238004 /(+2) 01288890065
www.shams-group.net